34. اكتساب أصدقاء في إفريقية

عارض سيد جعفر البار مهمتي الاستطلاعية إلى إفريقية. وقال في المجلس النيابي في 3 كانون الثاني (يناير) 1964: «بدلاً من جعل ماليزيا معروفة للأفارقة سيجعل نفسه معروفاً في الدول الأفريقية». وكان يريد أن يقوم بالزيارة وزير اتحادي. أجاب التونكو أنني طلبت موافقته كي أُعرّف أصدقاءنا في ذلك الجزء من العالم بماليزيا، وأنه يرى أن من الأفضل لشعبنا في المناطق الجديدة في الاتحاد أن يذهبوا إلى هناك بأنفسهم ليُعلموا الأفارقة أنهم انضموا إلى الاتحاد بمحض إرادتهم. إذا كانت الحكومة غير راضية عن نتائج البعثة، تستطيع أن ترسل وفداً آخر يكون البار عضواً فيه. وفي الوقت نفسه انتقدني التونكو لإجابتي عن رسالة من زهو إنالي، رغم أنني كتبت الرسالة قبل الاندماج. كان هذا خطأً كبيراً من جانبي كما قال. وكان علي أن أعرف أن مثل هذا التصرف غير مقبول في ماليزيا. فالاتحاد ينبغي ألا يكون له صلة بأي بلد شيوعي.

غادرت البعثة سنغافورة في أواخر كانون الثاني 1964 بطائرة توربو مستأجرة، مما أعطانا مرونة الحركة. كانت البعثة مؤلفة من رئيس وزراء ساراواك، وستيغان كالونغ ينخجكان (الذي انضم إلينا في لاغوس في شهر شباط) ونائبه جيمس دونغ، ووزير الدولة في صباح، وهاريس صالح، وأحد أعضاء برلمانه، ومن سنغافورة ديفان نير وسكرتيري البرلماني رحيم إسحاق. كنت أريد أن تتمثل في الوفد كل مجموعة عرقية كبيرة ــ المالاويون والصينيون والهنود والدایاك، والكادازان، وكان معنا اثنان من كبار موظفي وزارة الخارجية، وفريق من الصحفيين الماليزيين.

خططنا لزيارة 17 أو 18 بلداً في جولة تمتد 35 يوماً وأن نبقى في القاهرة أو الإسكندرية ريثما يجري إعداد الترتيبات. لم تكن المهمة سهلة. فماليزيا لم يكن لها تمثيل في أي بلد في إفريقية السوداء،لذلك كانت الاتصالات صعبة تمر عبر

بعثات تلك الدول في لندن لدول الكومونولث، أو سفاراتها في مصر،أو عبر وفودها في الأمم المتحدة، وأحياناً بمساعدة وزارة الخارجية البريطانية. وهذا ما كان يجعل ماليزيا تبدو تابعة لبريطانيا، ولكن لم يكن أمامنا خيار آخر أحياناً. وكان البلد الأفريقي الوحيد الذي رفض استقبالنا هو ليبيا.

كانت القاهرة محطتنا الأولى. لم يغير عبد الناصر رأيه في ماليزيا منذ التقيته في نيسان 1962. وكانت وكالة «انتارا» الأندونيسية قد قالت: إن علاقة السفير الماليزي في القاهرة بالرئيس عبد الناصر فاترة وإنه رفض استلام أوراق اعتماده. ولكن وزير الخارجية المصري محمود فوزي نفى صحة ذلك. وقالت الوكالة أيضاً إن مصر تتعاطف مع أندونيسيا. (وكان الأندونيسيون قد طلبوا من السفارة المصرية في كوالا لامبور أن ترعى مصالحهم عندما سحبوا سفيرهم). ووصف فوزي هذا الكلام بأنه «عار عن الصحة» كان الوزير فوزي، وهو فوق السبعين، رجلاً مهذباً ذا خبرة عالية. شرح لي لماذا كان سوكارنو ضد ماليزيا وما يريد أن يكسبه، إنه يريد قضية كي يلهي شعبه بطموحات خارجية. وإذا استطاع أن يشق ماليزيا يصبح دمج صباح وساراواك مع جزيرة بورنيو الأندونيسية مسألة وقت. كان عبد الناصر دافئاً وودياً في لقائي الذي استمر ساعتين بعد الغداء. وفي البيان المشترك أكد قبوله الدعوة لزيارة ماليزيا. وهذا يعني أن مصر اعترفت بماليزيا ولم تعتبرها كولونيالية جديدة.

في تونس، محطتي الثانية، التقيت الرئيس الحبيب بورقيبة، عربي متفرنس، وخلافاً للمتوقع كانت سياسته معادية للكولونيالية. وافق بورقيبة على أن ماليزيا الدولة ذات العشرة ملايين نسمة وقواتها التي لا تزيد عن 10 آلاف، لها الحق أن تطلب المساعدة عندما تهاجمها دولة يبلغ تعداد سكانها 100 مليون نسمة وتعداد قواتها 400 ألف مقاتل. وكنت أكرر هذه المقولة أمام كل زعيم أقابله له تحفظات على روابط ماليزيا الدفاعية مع بريطانيا.

ومن تونس طرنا إلى الرباط، عاصمة مراكش. لم يستقبلنا الملك، أما رئيس وزرائه فلم يُبد كثيراً من الاهتمام، وجعل محادثاتنا غير مترابطة. لم يكن ضد ماليزيا، وبصورة عامة المراكشيون موالون للغرب، لذا لم يكن ثمة خطر في تأييدهم لسوكارنو.

ثم انتقلنا إلى الجزائر التي كنت قد زرتها في تموز 1962 في طريق عودتي من مؤتمر لندن بعد أن نال الجزائريون استقلالهم من فرنسا. ومع أنني طرت من باريس في وقت متأخر تلك الليلة فقد قدم لي رئيس الوزراء بن بيلا العشاء في الساعة الحادية عشر ليلاً. ربما كان قد نُصح هذه المرة من قبل وزير خارجيته أن «التونكو» لم يكن ثورياً معادياً للاستعمار، ولكنه كان يعرفني رجلاً قوياً وصديقاً. وقد كنت قادراً على أن أشرح له بمساعدة هاريس صالح من صباح وجيمس وونغ من ساراواك، أن من حقنا ألا نُبتلع من قبل أندونيسيا، بل أن نندمج مع المالاويين، الذين تقاسمنا معهم ماضياً استعمارياً بريطانياً مشتركاً. ثم دعوت أنا وجيمس وونغ إلى اجتماع ثان غير محدد معه. عبّر بن بيلا عن أمله بأن يعود السلام، وقال: إن الجزائر راغبة في تأييد أي جهد يجمع ما بين ماليزيا وأندونيسيا لحل خلافاتهما دوماً. وصدر بعد ذلك بيان صاغه الجزائريون خلا من أية تحفظات سابقة واعتبر زيارة الوفد الماليزي تعزيزاً للتفاهم المشترك والصداقة بين البلدين.

كانت محطتي التالية باماكو في دولة مالي، وهي دولة قاحلة يغلب عليها الطابع الصحراوي. دهشت لاكتشافي أن تيمبوكتو لم تكن مكاناً خيالياً. ففي المطار جرى الترحيب بي على الطريقة الفرنسية، أولاً من قبل حرس الشرف ثم من قبل فتاة نحيلة ذات بشرة غامقة نصف عربية ونصف أفريقية في ملابس غريبة. قبلتني على وجنتي وقدمت لي باقة من الزهور. ثم استقبلنا الرئيس موديبو كيتا بثوب عربي في قصره الجديد الذي تتميز غرفه بأسقف عالية، وبأثاثها وتكيف هوائها. وبعد ذلك صدر بيان رسمي عن القصر الرئاسي يفيد

بأنه يؤكد على تمسك مالي بمبادئ عدم الانحياز، والتي تعارض تماماً وجود قواعد عسكرية أجنبية، وأضاف أن هذه المبادئ تطالب باحترام سيادة الدول. كما أشار البيان إلى دعوة لرئيس دولة مالي للقيام بزيارة رسمية إلى ماليزيا وليتأكد من تسلم جواب إيجابي. وأشار الرئيس كيتا، كشأن بن بيلا في الجزائر، أن بلاده تسحب تحفظاتها تجاه ماليزيا.

فيما كنت أتجه جنوباً رحت أفكر أن الأفارقة والعرب استطاعوا أن يلتقوا ويتمازجوا في القسم الشمالي من الصحارى، ممن ينتمي معظمهم إلى الإسلام. إن إفريقية السوداء عالم مختلف تماماً ولها مجموعة حضارات مختلفة.

وصلنا ليبيريا قبل الغسق. فبعد الهواء الجاف الصحراوي في باماكو، كانت مونروفيا حارة ورطبة مثل سنغافورة. ولكن ليبيريا كانت محاكاة ساخرة للدولة. فقد كان حرس الشرف ذا الطابع الأمريكي يتجول في المطار بلباسه غير الأنيق. حياني أفريقي طويل بلغة إنكليزية ذات لكنة أمريكية وقال فمعظم إنه كان وزيراً للخارجية. معظم مؤسساتهم كانت ذات أسماء أو طابع أمريكي. وقد أطلق حرس الشرف 18 طلقة من بنادقهم تحية.

وفيما كنا ننتظر في قاعة الشرف أخبرنا وزير الخارجية أننا سنذهب مباشرة إلى مزرعة الرئيس وليام تبمان،حيث كان ينتظر ليقدم لنا الغداء. استغرق إلى هناك الوصول قرابة ساعتين بالسيارة. كنت متعباً. فقد طرنا لمدة ثلاث ساعات واحتجنا إلى أن نغتسل ونرتاح. ولكن لم يكن ثمة مخرج. فقد كان هناك 7 من راكبي الدراجات النارية العسكرية حولنا مع حارس عسكري يجلس في المقعد الأمامي من سيارتنا الكاديلاك. وأثناء رحلتنا الطويلة التي دامت ثلاث ساعات خرجت درجاتان عن الطريق. ولم يهتم أحد بمصير الراكبين. وفهمت من رد فعل الوزير والمرافق أن مثل هذه الأمور تحدث عادة. وصلنا،والتقطت لنا الصور. وقدم لنا فيما بعد الطعام. ولم نستطع أن نغادر لمتابعة رحلتنا الطويلة إلى بيت الضيافة في مونروفيا.

أخرجت بيجامتي متعباً واتجهت إلى الحمام ووجدت المغطس مليئاً بالماء مع رواسب صدأ في القاع. وطلبت على الفور استبدال الماء. ولكن لم يكن ثمة مياه في الأنابيب. فاضطررت إلى الاستحمام بتلك المياه للتخلص من عناء السفر. بحثت عن زجاجة ماء فلم أجد، واستبدلتها بزجاجة فانتا. كانت حلوة المذاق ولكنها أفضل من لا شيء. بعد كل هذا القلق لم أستطع النوم. فأخرجت مادة للقراءة من جانب السرير. كانت أنشودة مديح للرئيس، نجم إفريقية ومنقذ البلاد. طويت الكتيب كي آخذه إلى البيت تذكاراً.

لم يكن ثمة حاجة إلى بيان مشترك في ليبيريا، إذ لما كان تابمان معروفاً بولائه لأمريكا، فقد كان يؤيد ماليزيا كما قَبِلَ دعوة «التونكو» لزيارة «الاتحاد». وفي اليوم التالي تجولت في مونروفيا كي أشاهد القصر الرئاسي الضخم وأحياء الفقراء البائسة حوله. كنت سعيداً بالانصراف.

وبعد مونروفيا كانت كوناكري في غينا، الدولة الأكثر عداء لفرنسا من بين جميع الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية. وكان الرئيس الفرنسي ديغول منزعجاً عندما صوتت غينا على الانسحاب من الرابطة الفرنسية. قالوا لنا: إن الفرنسيين سحبوا جميع أجهزة الهواتف وتجهيزات أخرى قبل أن يغدروا البلاد. ولكن حتى لو كان بقي كل شيء على حاله فإن السياسة الجامدة التي اتبعها الرئيس سيكوتوري ـ الاشتراكية ذات الطابع السوفييتي ـ كانت كافية لجعلها فقيرة. في عام 1964 لم تكن الآثار مدمرة بعد. نزل الوفد في شاليهات ذات مستوى فخم على الشاطئ تشبه أكواخ القش التي يسكنها زعماء القبائل الأفريقية، ولكنها مبنية من الآجر والملاط.

كان سيكوتوري نقابياً، شديد الذكاء. أمضينا وقتاً طويلاً نتحدث عن الاشتراكية بواسطة مترجم، وأعطاني عدة نسخ من كتابه «اشتراكية من أجل غينيا». كان معروفاً علانية بأنه ضد التدخل الإمبريالي في مستعمرات فرنسا القديمة لتأييد الزعماء الأفارقة الذين كانوا يفضلون السياسات الفرنسية، ورغم

معرفته الضئيلة عن ماليزيا كنت قادراً على جعله يفهم أن القوات البريطانية كانت ضرورية لإنقاذ بلد صغير مهدد من قبل جار كبير. ومهما كانت آراؤه الأساسية فقد تركته أكثر تقبلاً وانفتاحاً. كان بوسعه أن يرى جيمس وونغ، وهاريس صالح وأنا بأننا لم نكن دمى للاستعمار. استقبلنا بحفاوة، وقدم لنا غداء رسمياً، ولم ينتقد ماليزيا.

ثم توجهنا إلى أبيدجان في ساحل العاج. كان اختلافها عن كوناكري شديداً. كان الرئيس هوفيوت ـ بويغني، زنجياً فرنسياً، ووزيراً في الجمهورية الرابعة. رقيق الطبع، أنيق الملبس، استقبلني في قصر رائع يقع على منحدر هضبة، وتناولنا غداء فرنسياً مع الشامبانيا ومشروبات أخرى. كان متزوجاً من اثنتين كلتاهما حضرتا الغداء، وكلتاهما شابتان وجذابتان وشقيقتان!

لم يكن ثمة حاجة لإقناعه بقضيتنا. قال: إن أولئك الزعماء الأفارقة الذين ساروا في اتجاه آخر وأصبحوا معادين للاستعمار وموالين للشيوعية أو اشتراكيين سوف يعانون. وقد تأثرت بواقعيته.

قبل الرئيس دعوة التونكو لزيارة كوالا لامبور بدون تردد. كانت ساحل العاج في ذلك الوقت في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة،ممثلة للكتلة الأفريقية، وكان من المفيد أن نكسبها إلى جانب ماليزيا.

المحطة التالية كانت أكرا، عاصمة غانا. وكان من بين السفراء الذين حيوني في المطار سفراء ساحل العاج ومصر والجزائر. وقد أكد لي الأخير أن الجزائريين هم معنا الآن. كانت غانا، المعروفة باسم «ساحل الذهب» أول دولة أفريقية تحصل على الاستقلال (عام 1957) وكان رئيسها كوامي نيكروما من رؤساء إفريقية البارزين ودعاة الوحدة الأفريقية. وقد ضرب مثلاً للآخرين بزواجه من مصرية. أشارت إليه الصحف المحلية على أنه رجل العصر، كما كان مشهوراً بمعاداة الاستعمار ولديه رصيد يحافظ عليه. في يوم وصولي كتبت

صحيفة «أخبار المساء» في أكرا «إن الاتحاد الماليزي الحالي يحمل طابع الكولونيالية الجديدة». وشبهته «باتحاد إفريقية الوسطى» المنحل وانفصام عدن عن «الاتحاد الجنوبي العربي».

قابلت نكروما يوم الأحد في «قلعة كريستيان بورغاً التي تعود إلى القرن الثامن عشر، وهي مركز تجاري دانيماركي عتيق، والذي كان آنذاك مقر الحكومة. وفيما كنت أقترب من مقره الخاص كنت أسير بين مصابيح زيت ذات طراز هندي على جانبي البساط الأحمر. وجدته في حالة غريبة. كان قد نجا لتوه من انقلاب فاشل. ولكنه كان ودياً تجاهي، وقد تحاورنا لمدة ساعة. قال لي - وقد نقلت ذلك إلى الصحافة - لو أنك لم تأت لكنت أخطأت بسبب إهمالك». وفي اليوم التالي خففت الصحف المحلية من لهجتها تجاه ماليزيا. فالآن باتوا يقولون إنه قد يمكن استخدامها، ربما عن غير وعي، لأغراض الاستعمار الجديد. أمضيت النهار مسافراً مسافة 70 ميلاً كي أصل إلى سد «فولتا العليا» الذي كان قد بني من قبل تجمع شركات إيطالية وموّله البنك الدولي والحكومتان البريطانية والأمريكية. ولكن بعد أن رأيت كوناكري وأكرا والتقيت بزعماء يتحدثون بطابع اشتراكي حول توزيع الثروة، اعتقدت أنهم سيصبحون فقراء.

وفي لاغوس، نيجيريا، استقبلني رئيس الوزراء الحاج أبو بكر تافاوا باليواه صديق التونكو الحميم، في المطار استقبالاً رسمياً مع حرس الشرف. كان تأييده لماليزيا عظيماً وكذلك كانت مودة الشعب النيجيري. فعلى طول الطريق إلى المدينة الذي يمتد 15 ميلاً اصطفت الجماهير تُحيينا وترحب بنا. كانت لاغوس أفضل كثيراً من أكرا، فكثير من أبنيتها تشبه مباني الملايو وسنغافورة. وعند المغادرة كان بوسعي التحدث عن الدعم المعنوي الكبير لماليزيا من جانب رئيس الوزراء. وقد أرسلت نيجيريا ممثلاً خاصاً إلى كوالا لامبور لحضور الاحتفالات بعيد الاستقلال.

كانت لوساكا تقع في روديسيا الشمالية، وكانت على وشك الاستقلال وتغيير اسمها إلى زامبيا. كان رئيس الوزراء، كينيث كاوندا خارج البلاد، لذا فقد استقبلني نائبه كامانغا، نزلنا في فندق «ليفينغ ستون» وهو بناء مستدير من طابق واحد يشبه الفنادق الصغيرة في الريف الإنكليزي. كان الوزراء وديين، ولكنهم لا يعرفون إلا القليل عن جنوب شرق آسيا. ولكنهم كانوا مسرورين بزيارتنا وبطلب التأييد منهم. وقبلت الحكومة دعوة كاوندا لزيارة ماليزيا.

ثم انتقلنا إلى بلانتير مالاوي. حيث الرئيس الدكتور. هاستينغ باندا، الذي كان يُدعى من الجميع باسم «نغوازي» وهي تعني رجلاً ينظر إليه كأسد لسطوته وقوته. تخصص طبيبَ صحة في سكوتلاندة ومارس الطب هناك بسعادة لبضع سنوات. لم يكن بحاجة إلى أي إقناع، فقد كان ضد رهاب معاداة البيض.

ومن مالاوي إلى مدغشقر التي سُميت فيما بعد مالاغاسي، إلى عاصمتها تانانا ريف، حيث استقبلنا الرئيس تسيرنانا بكثير من الحفاوة وحسن الضيافة. كان رجلاً ملفتاً للانتباه وصريحاً ومستقيماً. تحدث بصراحة عن علاقات بلاده الوثيقة بفرنسا. وبعد أن استمع إلي قال: «إذا كان لا بد من الاستعمار، فمن الأفضل على الأقل أن يكون المستعمر أكثر حضارة بدلاً من أن يكون أقل حضارة». كانت مدغشقر بلداً غريباً، فهي جزيرة خارج الشاطئ الأفريقي، سكانها نصف أفارقة ونصف مالاويين أو بولونيز. ورقصاتهم تجمع ما بين الطابع الأفريقي والطابع البولونيزي لتحريك اليدين. كما توجد في لغتهم كلمات مالاوية. وبعد أن تناقشنا في مكتبه، سحب تسير نانا محفظة جلدية من درجه ونشر عدداً من الحجارة شبه الثمينة من مناجم مدغشقر. ثم دعا كل واحد منا أن يختار حجراً، فاخترت لوناً بحرياً من أجل تشو. واختار كل واحد من أفراد بعثتنا ما يروقه. شعر بسرور عظيم في رؤية البهجة على وجوهنا ونحن نختار الحجارة.

كانت دار السلام في تانغانيكا، والتي أصبحت فيما بعد تدعى تانزانيا، مختلفة. فيوليوس نيريري مسيحي، وإنساني، واشتراكي، وقد أعرب عن تأييده لماليزيا بدون أية قيود. ومن اللقاء الأول أحببت هذا الرجل لبساطة لباسه

وطباعه وطريقته في الحياة. فقد استضافني في قصر الرئاسة، الذي كان يستعمله الحاكم البريطاني قبل الحرب العالمية الأولى. أما هو فكان يفضل العيش في بيت صغير مجاور. كان وزراؤه الهنود على مائدة الغداء. وقد أشار هؤلاء أنه خلافاً لدول شرق إفريقية فقد كان لهم مكان في طانجانيقا. ولكن من دواعي الدهشة أن فلسفته الفابية والدولانية لم تأت من الماركسية بقدر ما جاءت من المناقشة مع زعماء آخرين معادين للاستعمار وكذلك من بعض الاشتراكيين البريطانيين المتفهمين الذين قابلهم في بريطانيا والتي سببت لبلاده فقراً لا ضرورة له.

عندما وصلت إلى كامبالا في أوغندا،كان رئيس الوزراء ميلتون أوبوت خارج البلاد، فاستقبلني وزراؤه. كانوا وديين ومتفهمين، فقد لعبت علاقاتنا المشتركة في الكومونولث دورها. كان هناك بعض التوتر بين الحكومة وكاباكا بوغاندا، أو «الملك فريدي» كما كان يدعى شعبياً، ولكن مع أن أوبوت قابل «التونكو» في مؤتمرات الكومونولث وكان ينظر إليه على أنه «الملك فريدي» آخر، فإن هذا لم يؤثر في تأييد أوغاندا لماليزيا. فقد كانا يتعاطفان مع ماليزيا،ولم يؤيدا أندونيسيا.

كانت الوقفة التالية في نيروبي مهمة. بحيث كان الرئيس جومو كينياتا معروفاً باسم رمزي (فري)، وهي عبارة تدل على الاحترام الشديد والتقدير لرجل كبير. كان مشهوراً في العالم بوصفه من أجل الحرية، والذي اعتقل أثناء ثورة الماوماو في الخمسينيات ضد الحكومة البريطانية والمستوطنين البيض. أما الحاكم العام مالكوم ماكدونالد، الذي كنت أعرفه عندما كان المفوض البريطاني العام في جنوب شرق آسيا فقد أعطى تعليمات لحكومة كينيان بشأن ماليزيا، وكل ما كنت أحتاج إليه هو مقابلة كينياتا والحصول على تأييده. ولسوء الحظ كان خارج مومباسا يفتتح مصفاة للنفط، ولكن مالكوم ماكدونالد كان حصيفاً وطلب من الحكومة أن تقابلني.

التقاني كينياتا في المطار واتجهنا معاً في سيارة مكشوفة إلى فندقي عبر حشود من الناس تصيح «أوروميي أورومبي». شجعني كينياتا على الانضمام إلى الأنشودة وأن أرفع أصابعي إلى السماء كما يفعلون،وهذه علامة كما شرح لي تعني «لنكن شعباً واحداً». وفي بيان مشترك أكد على صداقة كينيا مع ماليزيا، ورحب بزيارة البعثة كخطوة إلى الأمام نحو تعزيز التفاهم، وشكرني على مجيئي إلى مومباسا لرؤيته.

كانت محطتي الأخيرة أديس أبابا عاصمة أثيوبيا. بعد وصولي تجولت بالسيارة ظهراً، وتناولت العشاء في بيت الضيافة ثم نمت. وكنت أخشى أن أصاب بأزمة قلبية. فقد نمت نوماً عميقاً. وفي الصباح وعلى الفور سألت بعض أعضاء البعثة الآخرين ما إذا كان أحدهم قد انتابه مثل هذا الشعور الغريب. وكان الجواب بالنفي. فتمنيت لو أحضرنا معنا طبيباً. وعندما وصل الجانب الأكبر من الأعضاء من فندق في المدينة وارتحت كثيراً لأن أجد عدداً منهم قد انتابه هذا الشعور. كان ذلك دوار الجبال، فأديس أبابا ترتفع 8500 قدم فوق مستوى سطح البحر.

ومن أجل أن يستقبلني الإمبراطور هيلي سيلاسي كان عليّ أن أمر بين فهدين مربوطين إلى عمودين على جانبيه. بدا المشهد وكأنه من عصر الملك سليمان في العصر البابلي، باستثناء أن هيلي سيلاسي كان يرتدي حلة عسكرية ذات طراز إنكليزي. كان يصغي إليّ وكان واضحاً تماماً في تأييده لماليزيا. بيد أن حكمه لم يكن واحداً من الأنظمة الثورية في إفريقية. ذهلت بالفارق وبترحيب الجماهير في الشوارع والسيارة تقلّني وأعلامها ترفرف. كانوا يرفعون قبعاتهم وينحنون باحترام. كانت الأعلام تمثل السلطة سواء أكانت ترفرف للإمبراطور أم لضيوفه أم لأعوانه من المسؤولين، وكانوا يعرفون موقعهم المتواضع في أسفل السلّم. وخلافاً لبعض الأبنية الأنيقة أحياناً حولهم، فقد بدوا شاحبين وفقراء. عزوت ذلك إلى النظام الإقطاعي البالي الذي جعل الفلاحين فقراء وخصّ النبلاء بالثروة. لم أشعر بالتفاؤل تجاه مستقبل البلد.

الرئيس جومو كينياتا يستقبلني في مطار مومباسا، كانون الثاني، 1964.

شباط 1964: زيارة يوليوس نيريري (في الوسط) في دار السلام، تانزانيا.
وفي اليمين جلس ستيفن كالونغ، رئيس وزراء ساراواك.

ومن أديس أبابا طرت إلى عدن، في وقفة قصيرة من أجل وقود الطائرة، في طريقي إلى نيودلهي. كانت عدن تعاني من حروب أهلية فيما كان البريطانيون يستعدون للانسحاب. كانت هناك إجراءات أمنية مشددة حول المطار حيث كان الجنود يرابطون في أماكن استراتيجية، وفي حديثي مع ضباط سلاح الجو خلال الساعة التي أمضيناها هناك كنت أشعر بحالة الطوارئ.

في دلهي كنت مذهولاً أن أرى نهرو مهروماً منذ قابلته أول مرة في نيسان 1962. بدا مُتعباً ضعيف التركيز. كانت حرب الحدود التي جرت في كانون الأول من عام 1962 بين القوات الهندية والصينية عبر الهيمالايا كارثة. فقد دمرت كل ما كان يأمل به ويعمل من أجله. وكان قد قدم زهو إينلاي إلى الزعماء الأفرو آسيويين في باندونغ عام 1955 لفتح عصر جديد من التضامن الأفرو ـ آسيوي، ولكن أحلامه تحولت إلى حطام. شعرت بالأسى من أجله. لقد فقد حيويته وتفاؤله. بينما استقبلنا وزراؤه ومسؤولوه بحرارة وترحيب.

كانت محطتي التالية كوالا لامبور، وليس سنغافورة كي أقدم تقريراً للتونكو. كان سعيداً لأنني جابهت دعاية سوكارنو في الجبهة الأفرو ـ آسيوية. غطى تلفزيون كوالا لامبور مؤتمري الصحفي. قلت: إن الأندونيسيين طوروا مهارات دعائية، كانوا يعرفون حساسيات القادة الأفارقة الذين كانت القواعد الأجنبية بالنسبة إليهم من المحرمات. كانت هناك مشكلة الصورة الدولية لسوكارنو الذي بدا من خلال الفصاحة الكلامية ثائراً عنيفاً ضد الاستعمار،في حين أن التونكو كان رجل الغرب المعتدل. لقد أخطأ الأندونيسيون في تمثيله في خصاله الحميدة على أنه صنيعة للبريطانيين.

في فورة اللحظة غفر لي «التونكو» بياناتي المتمردة أثناء الانتخابات واقترح أن أذهب إلى نيويورك وواشنطن لأبيّن للأمريكيين أنني أقنعت الأفارقة. كان بوسعي أن أغادر على الفور بعد أن ارتحت. في اليوم التالي، 27 شباط،طرت إلى سنغافورة لأُستقبل بآلاف المرحبين بي في المطار. ووصف جيمس وونغ،الذي

غادر إلى ساراواك بعد دار السلام، مهمتي بأنها حققت نجاحاً هائلاً عند توقفه في سنغافورة، وقال: «ضمنا التفاهم والتعاطف والدعم المعنوي من جانب جميع الزعماء الأفارقة والوزراء الذين قابلناهم». وفيما كنت أقود السيارة ومعي زوجتي تشو وأولادي الثلاثة كانت الجماهير تلوح لنا على طول الطريق. كانت رحلة مرهقة، ولكنها لا تقدر بثمن بالنسبة إلى ثقافتي السياسية. تعلمت مباشرة من العرب والأفارقة وفهمت ما هي العقبات التي ينبغي أن تتجاوزها الدول الأفريقية الجديدة كي تعلم شعوبها وتطور اقتصادياتها وحيدة الجانب.

طوال رحلتي التي دامت 35 يوماً لسبعة عشر عاصمة أفريقية،ساعدتني الحرفية المهنية للسفارات البريطانية. فقد كان دبلوماسيوهم على اطلاع حسن وتكيف جيد مع الحكومات المضيفة. وكانوا يمدونني بكثير من المعلومات المفيدة. فعند كل توقف كنت أتلقى تلخيصاً موجزاً عن الوضع في البلاد، وتعريفاً بوزرائها الذين يحتمل أن ألتقي بهم، مع وصف لبنية السلطة. كانت هذه المعلومات جيدة. كما أن صفات الدبلوماسيين البريطانيين كانت عالية. أما أنهم جلبوا لبلادهم فائدة اقتصادية فهذه مسألة أخرى.

كان من أبرز ذكرياتي مقر الحكومة في لوساكا، حيث أقمت ضيفاً على آخر حاكم بريطاني لروديسيا الشمالية، السير ايفلين هون. كان حسن الأثاث والصيانة ولكنه لم يكن فخماً. كانت التجهيزات الداخلية تشبه ما كنت أجده في بيوت الحكومة البريطانية في سنغافورة وساراواك وبورنيو الشمالية. إذ كانت جميعها ذات نظام واحد. تساءلت عن نمط الحياة التي سيعيشها الحاكم في بريطانيا، عندما يغادر وظيفته، بدون عدد كبير من الخدم الذين يرتدون ملابس رسمية. كان يقوم بواجباته على خير ما يرام. ومن نافذة غرفة قاعة الاستقبال كنت مسروراً بمشاهدة بعض الحيوانات الأليفة وبعض الطيور الأفريقية في الحديقة. كان مقر الحكومة أشبه بقصر بريطاني يقع في روابي إفريقية، مع كل ما يمكن جلبه كي يخفف من حنين الحكام إلى أوطانهم.

كان عليّ أن أعود إلى لوساكا عام 1970 من أجل حضور مؤتمر دول عدم الانحياز، ومؤتمر دول الكومونولث مرة أخرى عام 1979. وفي كل مرة كان ثمة تجربة مريرة. فقد تذكرت الأزهار والأشجار والخضرة على جانب الطريق وما يحيط بها عندما كنت أقود السيارة من المطار في عام 1964. إذ نمت الأزهار بسخاء. وبعد ست سنوات اختفت الأزهار والأعشاب، وكان الإسفلت يغطي الشوارع. وتناقص عدد الحيوانات والطيور في مقر الحكومة، والقصر الملكي الآن،تساءلت لماذا؟.

تعلمت درساً لا ينسى من إزالة الاستعمار. فَلَكم هو أمر حاسم أن يكون لدينا وعي اجتماعي وحكومة قادرة وفعالة لاستلام الحكم من السلطة الاستعمارية، ولاسيما في إفريقية. إذا لم يحافظ الزعيم على وحدة البلاد بإشراك زعماء قبائل الأقليات في السلطة أو يستبعدهم فسرعان ما سينهار النظام. والأسوأ من ذلك التطبيق السيئ لسياسات غير مستوعبة جيداً حول إعادة توزيع الثروة والاشتراكية. والمحصلة هي حصاد النتائج الوخيمة.

35. مغامرة في قلب المالايو

(دعوت) في يوم مغادرتي إلى إفريقيا لاجتماع طارئ «للجنة تنسيق الدعاية والنشر»، التي كنت رئيسها لمناقشة كيفية توفير الحماية لمصالح سنغافورة في كوالا لامبور. فتنميتنا الاقتصادية لا يمكن أن تكون رهينة التحامل السياسي لوزير المالية الماليزي تان سيوسين. و كنت أريد من اللجنة أن تهتم «برغبة حزبنا ـ PAP ـ في التقدم في الانتخابات القادمة في ماليزيا». بإدخال بعض المرشحين. وكان عليهم أن يتخذوا القرار بعد عودتي فقط.

ولكن عندما كنت في إفريقيا ألح راجا، وتشين تشي و بانغ بون ـ ثلاثة من وزراء سنغافورة نشأوا في المالايو ـ على اللجنة التنفيذية المركزية لحزبنا على الاشتراك والمنافسة في الانتخابات الماليزية العامة.

وفي اليوم التالي الذي تلا عودتي أعلنت الصحف أن الانتخابات سوف تجري في شهر نيسان. وسرعان ما أعلن تشين تشي أن حزبنا سيعلن عن عدد صغير من المرشحين. وأضاف بأن الحزب ليس لديه رغبة في مواجهة الحكومة المركزية أو «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو» ـ UMNO، وأن هدف الحزب هو التعاون معهما من أجل نجاح ماليزيا.

كان كينغ سوي ضد أية مساهمة على وجه الإطلاق. وكان يعتقد أن مثل هذه المساهمة ستضعف العلاقة بين كوالا لامبور وسنغافورة وتعرض خططه لتصنيع البلاد ضمن «الاتحاد»، وكان لدي تحفظات، إذ لما كان التونكو قد خرق تعهده الشفوي لي بعدم المشاركة في انتخابات سنغافورة، فإنني لم أعد ملتزماً بتعهدي وسرت مع قرار اللجنة التنفيذية المركزية.

يرونا ويسمعونا. وكانوا يمدونني بكثير من الحماسة في كل مرة. كانوا يسمعون، ويقرأون، ويشاهدون ماذا فعلنا في سنغافورة وأننا قادرون على أن نقوم بالأشياء نفسها من أجلهم في المالايو.

كانت معركة حامية الوطيس بين جميع الأطراف المتنافسة. وإذا ما احتكمنا إلى الحشود الجماهيرية، فقد كانت حملتنا التي استمرت شهراً ناجحة إلى حد بعيد. وكنا على ثقة من كسب ست أو سبع مقاعد من أصل تسع مقاعد، وخضنا المعركة بقوة وجرأة.

ومن أجل تبيان الفرق بين الاثنين تحدثت في مالاقا عن كينغ سوي وتان سيوسين، وكلاهما من مواليد مالاقا، وقلت: «إنهما شريكان في جد واحد، وهنا تشابه الأهداف». لقد انتهج كينغ سوي بوصفه وزير مالية سنغافورة، سياسات أدت إلى فائضات مالية مما يعكس خلفيته المتشددة. فقد كان أستاذاً في علم الاقتصاد.

من جهة ثانية ورث تان ثروة العائلة وكان فاحش الثراء. ولما كان مديراً لعدة شركات فقد أدار وزارة المالية بوصفها واحدةً منها ـ بحصافة واقتصاد من أجل أن يقدم أفضل الإيرادات للمديرين. إنه رجل ولد وفي فمه معلقة من فضة، وقد وصل إلى مناصب سياسية رفيعة بسهولة تحت ظل شهرة والده. كان يمثل دائرة «مالاقا تيبغاه» المالوية الانتخابية لذا وجد من غير الضروري أن يتعلم الحديث أو الكتابة بالصينية. ومع هذا فقد ادعى أنه يقود الصينيين في ماليزيا.

كان تان سيوسين غاضباً، ولكن «التونكو» خف لنجدته. فقد كان اتحاده UMNO يقف مع الحزب الشيوعي في السراء والضراء، حتى لو لم يبق منه إلا خمسة أفراد فإنه لا يتخلى عن شركائه ـ خلافاً لحزبنا، الذي جاء إلى السلطة بمساعدة الشيوعيين وقد تخلى عنهم الآن، كما قال «التونكو». رد تان ومن خلفه «التونكو» بعبارات صارمة.

فقد كان حزب العمل الشعبي (PAP) قادراً على الطعن في الخلف، فالمبدأ والشرف لا يساويان كثيراً لدى قادته، «ولي» نفسه كان مثل الحرباء، وكانت فكرته عن الديمقراطية موضع شك، إذا ما نظرنا إلى افتقار حزبه إلى الديمقراطية.

فقد دعاني لأن أعطي تفاصيل كي أؤيد الأقوال التي ذكرتها بأن الحزب الشيوعي كان فاسداً، وهي ما يقرب من التشهير.

أجبت بأنني مستعد أن أفعل ذلك إذا كان يوافق على لجنة تحقيق لمتابعتها. ولكنه لم يجب.

فيما اتخذ رزاق و التونكو ووزراؤه الطريق العالي اتخذ جعفر البار الطرق المنخفض. ففي 25 أيار سألني ما إذا كنت أدافع عن الاختفاء النهائي للسلاطين وتأميم مزارع المطاط ومناجم القصدير عندما كنت أتحدث عن ثورة اجتماعية. كما أبقتني السلطة العسكرية البريطانية في السلطة، كذلك أنقذتني حكومة التحالف من أن يسحقني «الباريسان»، وأضاف قائلاً: إنني مازلت أعامل مالاويي سنغافورة كربيبين وأعاديهم. وقال: «لي كيوان يو يزدري المالاويين كثيراً حتى إن حكومته رفضت أن تعين أي مالاوي ليخدم في سنغافورة كونه أصلاً». ثم اتهمني بأنني قلت في خطبة لي بالصينية في سيريمبان إن «التونكو» ليس سياسياً رفيع المستوى. مما يعني أن قيادته غير قديرة. وكان هذا كذباً صراحاً، ولكن التونكو غضب، ورد بأنه في الوقت الذي يؤيد فيه الثورة الاجتماعية، فإن ما أدعو إليه مفهوم لا يلائم سجية الشعب ولذا لا نرحب به.

أجبت في كلوانغ أن نصف مشكلات «التونكو» يخلقها أصدقاؤه القدامى الذين استغلوا بمهارة ودهاء ولاءه الشخصي لهم. بأنني لم ألوث سمعته عند قلت بالصينية في سيريمبان، بأن عليهم أن يثقوا بحزبنا بتفهم كاف كي يعرفوا أن اتخاذ سياستين مختلفتين بلغتين مختلفتين سيكون ذلك الطريق المضمون إلى عدم الثقة به. ولكن البار ظل يتهمني بأنني ذو وجهين، مضيفاً «لا أحد ينبغي أن

ازدحام شديد في الاحتفال الانتخابي الأول لحزبنا

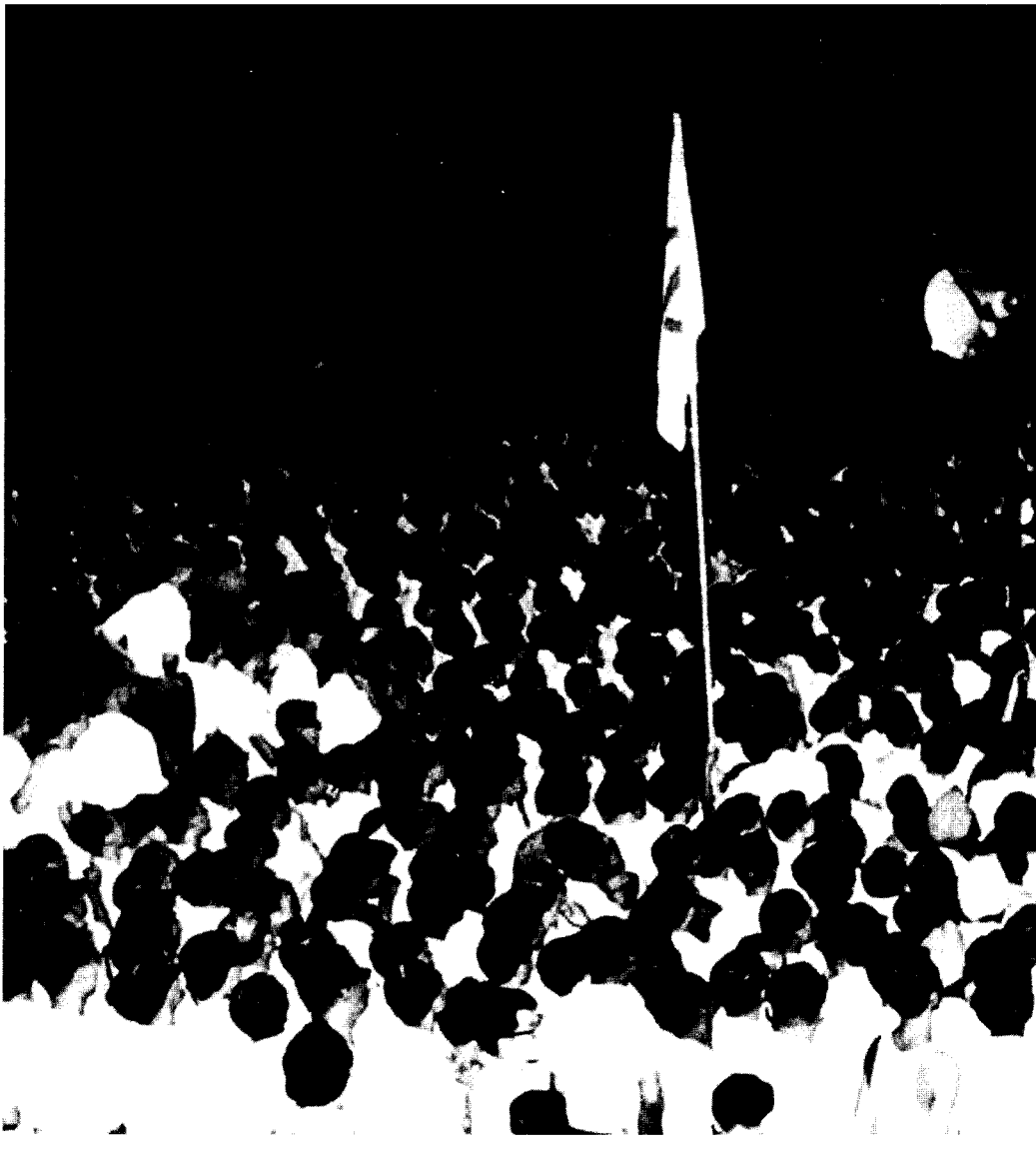

ر 1964، في ساحة سليمان، كوالا لامبور.

يثق بلي كيوان يو لأنه رجل لا يحافظ على كلمته. لا مكان لرجال مثله في مالايا». وأنه تلقى مئات الرسائل من مالاويين في سنغافورة، بما في ذلك من موظفي حكومة، يشكون أوضاعهم تحت حكم حزبنا (PAP) كما قال. كان ذلك توجه عنصري خبيث كي يجعل المالاويين يكرهونني.

فقد ظهر بالاحتكام إلى رد الحشود الجماهيرية أنه كان شهراً من الحملة الناجحة لصالح حزبنا. حتى الذين يلتمسون الأصوات من جانبنا عادوا بتنبؤات متفائلة، لأنهم استقبلوا استقبالاً حسناً. كنا واثقين من كسب 6 أو 7 مقاعد من أصل 9 مقاعد، ودخلنا الحملة بجرأة، وسحبنا هجومنا على «الاتحاد» على الرغم من تهجمهم علينا ولا سيما من جانب البار. في نهاية المنافسة في سيلانغور عشية الاقتراع وصفت ماليزيا بأنها سفينة تتجه نحو مياه مضطربة وعلى رأسها «التونكو». وأن ما يحتاجه الحزب الشيوعي ليس وجوهاً جديدة بل أفكاراً جديدة.

أعلنت نتائج الانتخابات في الصباح الباكر من يوم 26 نيسان (أبريل) وجاءت مفاجأة. في الساعة الرابعة صباحاً، فقد كسب «التحالف» 89 مقعداً من أصل 104 مقاعد، مما كان يعني نتيجة أفضل من الانتخابات السابقة. عاد كل وزير في «التحالف» بأغلبية أكبر. ولم يكسب حزبنا إلا مقعداً فقد واحداً هو مقعد ديفان نير في بونغسار، وبغالبية 808 أصوات فقط.

أين خطأنا؟

أولاً لم يكن لدينا حزب من أهل البلاد له فروع وقادة محليون في المالايو. فقد جلبنا عاملين من سنغافورة ومع أن بعضهم من أصل مالاوي، فقد كانوا يفتقرون إلى القواعد الراسخة اللازمة لكسب الثقة.

وثانياً لم يكن لدينا خبرة في خوض حملة انتخابات داخل «الاتحاد». ففي سنغافورة كان كل شيء في متناول يدنا وطوع بنانا.

وفي نهاية الحملة كان الحزب مديناً بأكثر من 60 ألف دولار، بعد أن أنفقنا 40 ألف دولار من صندوقنا. وثالثاً فإن مساهمتنا لم تقنع الناس بالتحول عن حزب MCA إلى حزبنا. فقد كانوا يريدون المحافظة على روابطهم مع «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو» (UMNO) التي تديرها الحكومة والتي كانت مسؤولة عن إصدار الرخص التي يريدونها. لم نفهم حقيقة ميزان القوى، إذ كان 75% من سكان الملايو من الصينيين أو الهنود، و 25% فقط من الملاويين.

هل سببت مشاركة حزبنا في تدهور العلاقة ما بين كوالا لامبور وسنغافورة ؟ نعم، ولكن لم يكن لها تأثير في السبب الرئيسي للنزاع والانفصال النهائي ـ المحافظة على سيطرة (UMNO) على الملايو بكاملها.

بعد أن خسرنا لم تتدهور علاقتنا بوزراء (UMNO) بصورة شديدة، ولكنهم لم يعودوا متساهلين بسبب الفرق الجوهري بيننا. بل كانوا يريدوننا أن نقتصر على أصوات الناخبين الصينيين والتوقف عن التقرب من الملايو. ولن يتساهلوا أبداً تجاه أي تحد لقبضتهم على قاعدة مالايو السياسية. فالقاعدة الملاوية الانتخابية باتت خارج قبضة الأحزاب غير الملاوية كحزبنا. وقد قبل حزب MCA بهذا القيد. ولكننا لم نقبل نحن.

في استعادة لأحداث الماضي أعتقد أنه كان من الأسوأ لسنغافورة إذا ما أجلنا المشاركة في الانتخابات الماليزية حتى الانتخابات التالية عام 1969. إذ كانت ستنشب الخلافات ذاتها مع «الاتحاد»، ولكن مع انتهاء المجابهة فإن النفوذ البريطاني الباقي سيزول، لأن قواتهم لن تكون ذات فائدة بعد ذلك، كما أن الزعماء الملاويين سيكونون أقل اهتماماً بالتعامل مع حزبنا.

كانت المنظمة الوطنية الملاوية المتحدة (UMNO) راضية عن انتصارها، والحزب الشيوعي الملاوي (MCA) مرتاحاً، وكان الاضطراب ينتظر حزبنا. ومن أجل إظهار عدم رضى التحالف عن حزبنا قام رئيس المجلس ـ ربما بعد مشاورة التونكو لأنه كان عضواً في المنظمة ـ بإبعاد الأعضاء الوزاريين الخمسة في

حزبنا الذين يمثلون سنغافورة في البرلمان الاتحادي، والذين كانوا سابقاً بجانب الحكومة، إلى مقاعد المعارضة كي ينضموا إلى الأعضاء السبعة الموجودين هناك من قبل. من جهة أخرى بدا أن كينغ سوي يخشى من أن تخفق خططنا الخاصة بالتصنيع من التحالف.

في 17 نيسان فيما كنت أتحدث إلى غرف التجارة الأربعة في غداء على شرفي بعد مهمتي إلى إفريقية، كان لدي سبب جيد لمناقشة الانتخابات الاتحادية طالما أن الحزب الشيوعي يعتقد أنه يستطيع العودة إلى سنغافورة مستفيداً من موقفه الوزاري في الحكومة الاتحادية، فقد يغريهم التدخل في شؤون سنغافورة. وهذا من شأنه أن يؤدي حتماً إلى إعادة النزاع الحاد الذي أفسد المفاوضات المالية حول الاندماج.

ظلت الأمور هادئة نسبياً حتى منتصف تموز. من دواعي الدهشة أن تان سيو سين أظهر مهارة إدارية بالانتصار في دعوتي إلى غداء صيني في مقر الحكومة الاتحادية في هضبة فريسر. قبلت الدعوة على الفور. كان رجلاً مقتدراً وموثوقاً. لم تتراجع علاقتنا الشخصية إلى درجة تفقد معها أن نكون حضاريين واجتماعيين، وكنت مصمماً على ألا أجعلها تتدهور، وأن تبقى متوازنة. وكان والده طيباً معي بشكل خاص.

كانت مأساة تان مأساة كل جيل الصينيين المولودين في المضائق. إذ لم يفهموا أن القواعد قد اختلفت في المالايو المستقلة ـ ماليزيا فيما بعد ـ عن تلك الأمور التي اعتادوا عليها في ظل حكم الإنكليز. فالمالاويون هم الحكام الآن. و هم لا يشعرون بالأمن لأنهم اعتقدوا أنهم لا يستطيعون منافسة الصينيين والهنود. لذا قرروا أن يقبضوا على السلطة بغض النظر عما إذا كان ذلك عادلاً أو غير عادل للأعراق الأخرى. وكلما حاول الصينيون والهنود أن يكسبوا حيزاً أكبر لأنفسهم، كانوا يرون في ذلك تحدياً لموقعهم كونهم حكام. وبالتالي يزداد شعورهم بالخوف. وكان تان غير واعٍ لهذا تماماً وكذلك معظم صينيي المضائق. و خلافاً لذلك فإن

التجار الناطقين بالصينية كانوا سريعين في التخلص من هذه المخاطر في الوضع الجديد. فقد كانوا يشعرون أن ثمة نية في قتل الثقافة الصينية وانتهاج القادة المالاويين لسياسة تربوية تقلص من تعليم اللغة الصينية وتمويل الثقافة الصينية إلى المدارس الصينية.

كذلك كان لدى الهنود في ماليزيا، مثل شقيق «راجا» في سيريمبان، مخاوفهم المشابهة تجاه المستقبل ذلك أن أن اللغة الإنكليزية كانت تستبدل باللغة المالاوية. وكانوا يعلمون بأنهم أقلية ولا فرصة لهم في السلطة، وكان يسعدهم أن يسيروا مع أية مجموعة تترك لهم مساحة للعيش والتقدم، ولكنهم كانوا يخشون بأن يحرم أطفالهم من تعليم جيد وآفاق حسنة. لقد فقدوا احتكارهم للأعمال في السكك الحديدية المالاوية بعد أن ازداد توظيف المالاويين. والأسوأ من ذلك بأن مقاطعات المطاط الضخمة التي تملكها الشركات البريطانية قد بيعت إلى مؤسسات حكومية. وكانت هناك أعداد كبيرة من الهنود العاملين في صناعة المطاط ممن كانت لهم مدارسهم التي تعلم بلغة التاميل، غير مستعدة للعمل في حقول أخرى. لقد أصبحوا مشكلة.

وبالنسبة إلى المالاويين أيضاً كان ثمة تبدلات سياسية واجتماعية مشؤومة زادت من شعورهم بعدم الأمن. ولأول مرة وجد «التونكو» أنه مضطراً للدفاع عن نفسه في المجلس البرلماني لإعطائه بعض الموظفين المغتربين 10% زيادة. ولم يهاجمه حزبنا والجبهة الاشتراكية فقط، بل هاجمته أيضاً نقابات المستخدمين في الخدمات الخاصة والمدنية، وكذلك من موظفي الحكومة الكبار في مالايا. وبعد أسبوع تراجعت الحكومة المدنية وصدر بيان بعد اجتماع للحكومة يفيد أنها لم تكن عارفة بالأصداء الخطيرة المحتملة في الخدمة المدنية، وأبدت أسفها إزاء أية متاعب سببتها. واتخذت السياسة المالاوية موقفاً أكثر حدة.

جر التأييد الانتخابي المتزايد للتونكو رد فعل حاد من جانب سوكارنو. فبعد ست ساعات من الاجتماع مع الرئيس أعلن سوباندريو توجيهاته بشن حملة «سحق ماليزيا» في جميع الميادين. وفي حزيران اجتمع التونكو مع سوكارنو في

«ماكاباغال» في طوكيو. ولكن الاجتماع انهار. بسبب تكرار سوكارنو: «قلت ألف مرة إنني لا يمكن أن أقبل بماليزيا. قلت ألف مرة إن هذه «الماليزيا» ألعوبة في يد البريطانيين. ولا بد من سحقها». وقد جوبه هذا التهديد بالرفض من جانب رئيس الوزراء الأوسترالي سير روبرت منزيس، الذي أكد على تأييد بلاده لماليزيا. وفي 26 حزيران قال الرئيس جونسون: وإن الولايات المتحدة ستقف إلى جانب ANZUS، فاتفاقية الدفاع التي تربط كلاً من أستراليا ونيوزيلاندة بالولايات المتحدة. ولسوف تتدخل أمريكا في نزاع ماليزيا إذا وقع لحليفتها أية متاعب. لا بد من احتواء النزاع.

ولكن كان لدينا سبب آخر للقلق تجاه البار. لم نكن نعرف ماذا يخطط، ولم يتح لنا أن نعرف إلا في عيد مولد النبي محمد.

36. البار يدغدغ مشاعر المالاويين

كان سيد جعفر ألبار من أشد زعماء «المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو ـ «UMNO» عداوة لسنغافورة. كان أندونيسياً من أصل عربي، جريء وممتلئ حيوية، له وجه مستدير وشارب وصوت قوي. في بداية الخمسينيات كان ودياً. وأذكر في شباط عام 1955 عندما كنت أودع «التونكو» على السفينة التي ستقله إلى إنكلترا من أجل حضور المؤتمر الدستوري، أنه حضني البار بالاقتراب أكثر من «التونكو» بحيث نتصور معاً أمام الصحافة قائلاً باللغة المالاوية «اكتسب الشهرة من رفقة الرجال الكبار». كان رجلاً مثيراً للمتاعب، ماهراً في تحريض واستثارة الجماهير، كانت لغته الإنكليزية غير ملائمة للخطابة، ولكن لغته المالاوية جيدة وأداءه قوي.

لم يكن بحاجة إلى التحدث إلى الصحافة البريطانية، التي قد تظهره كعنصري تجاه المتحدثين بالإنكليزية ليس في ماليزيا فقط، بل وعلى الصعيد الدولي. كان يركز على الصحافة المالاوية، ويخصص معظم تصريحاته الحادة لها، ولاسيما إلى صحيفة «أوتوسان ميلايو» التي كانت تطبع في حاوي بالعربية ولا تقرأ من قبل الصينيين والهنود والبريطانيين أو الأوروبيين الآخرين. وكانت سلاحه للخيار من أجل تأثير متعدد في خطبه.

كان البار والصحافة المالاوية يكرران الأكاذيب حول أنني صغرت من شأن «التونكو» بوصفه زعيماً قليل الشأن. وقد صعدا الآن حملتهما لإثارة المالاويين تجاه قضايا معينة حقيقية أو متخيلة، مستغلين حقيقة أنهم المجموعة الأقل نجاحاً والأفقر من بين الجماعات المختلفة في سنغافورة. والحقيقة أن حكومة حزبنا لم تقلل أبداً من شأن المالاويين. فعلى العكس، منحناهم التعليم المجاني وهذه مزية لم تمنح لأبناء الطوائف الأخرى، وعلى الرغم من عدم وجود حصة

مالاوية من تراخيص سيارات الأجرة والبائعين المتجولين فقد عملنا على توفير ذلك. ومع هذا فقد ذكرت صحيفة «أوتوسان» في 13 أيار 1964 أن هناك قلقاً وعدم ارتياح في أوساط المالاويين حول تخصيص المواقف في سوق «غيلانغ سيراي» الجديد، وادعت في شهر حزيران أن سياسة حزبنا بشأن المدارس قد جعلت التربية في مالايا مترديةً.

بدأ البار هجومه في 21 أيلول 1963، بعد انتخابات سنغافورة العامة مباشرة، عندما اتهمت «المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو» «UMNO» أعضاء حزبنا سنغافورة بإرعاب المالاويين في منطقة غيلانغ سيراي، في الجانب الشرقي من الجزيرة، بإلقاء المفرقعات النارية على بيوتهم بعد أن ربح حزبنا الدوائر الانتخابية المالاوية الثلاثة. لم أتأكد آنذاك من أن الاتهام الكاذب كان جزءاً من الحملة فيما إذا كان مؤيدونا قد ألقوا المفرقعات والاعتذارات، وقد فعلت ذلك على شاشة التلفزيون، ولكن تبين أثناء التحقيق أن الاتهامات لا أساس لها من الصحة، فقد كان لقادة «المنظمة الوطنية» ما يدفعهم لتشويه صورتي.

وبعد أسبوع. تلا ذلك مزيد من التشويش. فبعد أن أعلن تشين تشي، على سبيل المثال، في الأول من آذار 1964 أن حزبنا سيشارك في الانتخابات الاتحادية، نشرت صحيفة «أوتوسان» هذا العنوان الرئيسي: «1500 مالاوي مهددون بمذكرات إخلاء». والحق أن الأرض التي طلب منهم إخلاءها كانت ملكية خاصة. وكان من حق المالك أن يستصدر هذه المذكرات، وكان مستعداً للتفاضي مع القاطنين وأن يمنحهم تعويضاً. ولم يكن لحكومة سنغافورة شأن في هذا. وقد تجاهلت صحيفة «أوتوسان» هذه الحقيقة، وذكرت في 28 أيار أن ثلاثة آلاف مالاوي كانوا مهددين بالإخلاء من بيوتهم في «كراوفورد» و«روتشور» و«كامبونغ غلام». فقمت بجولة في هذه المناطق كي أخبر السكان بأن مذكرات الإخلاء أرسلت إلى مالاويين وصينيين وهنود بدون تفريق، من أجل تنفيذ خطة أعدها خبير من الأمم المتحدة من أجل إعادة بناء المدينة، بدأً من الأطراف الخارجية

باتجاه الداخل. كان علينا أن نزيل الأبنية القديمة ولإعادة إسكان المتضررين عن طريق خطة التجديد هذه. وسوف نزودهم بمساكن مؤقتة قريبة، كما ستمنح كل عائلة مبلغ /300/ دولار لتغطية نفقات الانتقال، وإعطائهم الأولوية بالعودة ما إن يتم إنجاز الأبنية الجديدة.

كما كنا نتعرض للهجوم أيضاً تجاه قضايا أوسع. ففي 23 أيار جاء في افتتاحية لصحيفة «أوتوسان» أن حزبنا وأنا نحرض غير الملاويين على المطالبة بإلغاء الحقوق الخاصة للملاويين. وادعت الصحيفة في 11 حزيران أن «المنظمة الوطنية لاتحاد الملاويين (UMNO) في سنغافورة قد وجهت لاتخاذ خطوات لإنقاذ ضحايا حزبنا (PAP)»، وفي اليوم التالي نشرت عنواناً رئيسياً آخر: «يواجه مالاويو سنغافورة اليوم التهديد والضغط والقمع من قبل الحكومة». وبعد أسبوع حرضت صحيفة أوتوسان جميع الملاويين على «الوقوف بقوة خلف UMNO للقيام باحتجاجات عنيفة وفعالة ضد حزب الحكومة (PAP)»، ودعوة كوالا لامبور لاتخاذ تصرف لحماية حقوقها الخاصة. عندئذٍ نشرت المنظمة الوطنية (UMNO) كتاباً أبيض يشرح «بالتفصيل معاناة الملاويين تحت حكم حزبنا الذي يقوده لي كيوان يو». ومرة أخرى اتهمونا بمعاملتهم كأطفال من أب آخر، قائلة: إن الملاويين الخونة لعرقهم الذين صوتوا لنا قد تحققوا من خطأهم، لأن الحكومة الآن قد نوت تحويل غيلانغ سيراي إلى مدينة «تشاياناتاون» أخرى.

جميع هذه الأقوال الفظيعة المشهرة لم يكن لها علاقة بالموضوع، المهم أن تنجح في تحريض الملاويين.

والمثال الجيد على هذا المبدأ تجلى في 4 تموز عندما شوهت صحيفة «أوتوسان» خطبة ألقيتها في سيريمبان قلت فيها «إن 40% من الملاويين في ماليزيا لا يستطيعون أن يقودوا 60% من غير الملاويين». واعتبرت «أوتوسان» أن أولئك القادرين على قيادة الآخرين في ماليزيا هم الصينيون وغيرهم من اللامالويين، أما الذين يقادون فهم الملاويون لأن أعدادهم ضئيلة جداً. وكرروا

ذلك طوال الأيام القليلة التالية، مدعين ثانية أن حزبنا على وشك أن يدمر «الحقوق الخاصة» للمالاويين عندما أشرنا إلى أن الدستور السنغافوري قد اعترف فقط «بوضعهم الخاص»..

قبل ذلك كنت قد قررت أن أجابه هذه الحملة بدعوة جميع الزعماء المالاويين إلى سنغافورة لمقابلتي في 17 تموز من أجل مناقشة وجهاً لوجه لكشف الأكاذيب والتلميحات الخبيثة وفي 30 حزيران، سبقتني «المنظمة الوطنية»، فقد أعلنت صحيفة «أوتوسان» أن المنظمة سوف تحضر مؤتمراً للأحزاب المالاوية في 12 تموز» لمناقشة مصير ومأزق المالاويين في سنغافورة تحت حكم حزب PAP». وقد التحق بهذا الاجتماع جميع الأحزاب المالاوية السياسية، على الرغم من أن ثلاثة منها كانت معادية لماليزيا ومؤيدة لأندونيسيا. لا شك أن هذه المسألة كانت تتطلب وحدة العرق المالاوي، وانطلق البار من أجل تحريك عواطفهم قائلاً: إن مصير المالاويين كان أسوأ مما كان من قبل أثناء الاحتلال الياباني. وهذا اقتباس دقيق لواحدة من خطبة:

«أنا سعيد جداً اليوم لأننا نحن معشر المالاويين والمسلمين في سنغافورة قد أظهرنا الوحدة ونحن مستعدون أن نعيش أو نموت معاً من أجل عرقنا وأجيالنا المستقبلية. وإذا كنا متحدين فلا توجد قوة في العالم تستطيع أن تقهرنا أو تذلنا، أو تقلل من شأننا. لا كيوان يو واحد بل آلاف من أمثاله... فقد أنهيناهم...» (تصفيق وصياح «اقتلوه... اقتلوه... عثمان ووك ولي كيوان يو... لي كيوان يو.. عثمان ووك»). «مهما تعرضنا للقمع والضغط ومهما ضيق الخناق علينا من قبل حكومة PAP وفقاً لمنطق لي كيوان يو: اخرسوا إنكم أقلية عرقية في هذه الجزيرة. هنا أقول للي كيوان يو: اخرس أنت ولا تقل لنا اخرسوا».

وقد عرضت التظاهرة بأكملها على شاشة تلفزيون ماليزيا في كولا لامبور في الأمسية ذاتها. ومن بين الحلول التي اتخذت دعوة إلى مقاطعة مؤتمر الحكومة في 17 تموز حيث كان علي أن أخاطب زعماء مالايو الأساسيين. فالإثارة العرقية

الأمين العام لمنظمة (UMNO) سيد جعفر البار، تموز 1965

الكثيفة في الصحف المالاوية أثارت عواطف المالاويين في جميع أرجاء الاتحاد. وفي 14 تموز أعلنت قيادات الشرطة الاتحادية أنه وقعت حوادث في بوكيت ميرتاجام في مقاطعة ويلسيلي، على بعد 500 ميل شمال سنغافورة حيث قتل شخصان وجرح 13 شخصاً. لقد حدثت صدامات مالاوية ـ صينية في عدة مناسبات في تلك المستعمرة السابقة في بينانغ بعد أن اندمجت في «الاتحاد المالاوي» عام 1948 وأصبحت الحقوق الخاصة المالاوية تنفذ هناك، بعد أن كانت لا تطبق من قبل.

رغم الدعوة إلى مقاطعة حضرت مؤتمر الحكومة 83 منظمة مالاوية و300 مختار. تحدثت باللغة المالاوية وناقشنا مشكلات التعليم في مالايا، وكذلك التوظيف والسكن. لم يثر أحد مسألة التسوية في كراوفورد، التي استخدمت للإثارة. وفي خمس ساعات من المناقشة الصريحة أوضحت أن الحكومة ستعمل كل ما في وسعها لتوجيه المالاويين إلى أعلى المراكز، ولكن لن تكون هناك حصة محددة للأعمال أو لمسألة شهادات الترخيص للسيارات العمومية والبائعين المتجولين.

عتمت إذاعة ومحطة التلفزة في كوالا لامبور على جميع مقررات هذا الاجتماع. وبدلاً من ذلك حملت «أوتوسان» في اليوم التالي عنواناً خطيراً ومؤذياً: «تحد لجميع المالاويين ـ ولشبيبة UMNO، لي كيوان يو مدان، أستاذ أرغم طالباً على أكل لحم الخنزير ـ احتجاج». هذا العنوان مثير للفتنة يرغم المسلمين على اتخاذ شيء مالا يحبونه، لا سيما عشية الاحتفال بمولد النبي محمد، وهو يوم له أهمية عظيمة عند جميع المسلمين.

كان يوم الاحتفال بعيد مولد الرسول محمد في 21 تموز، 1964، وهو يوم احتفال شعبي، وكان من عادة المالاويين أن يتجمعوا في مكان عام في المدينة ويتجهون إلى غيلانغ سراي بالطبول والزمور. وينشدون المدائح الدينية للاحتفال بهذه المناسبة سنوياً. هذه المرة انطلقت المسيرة من بارانغ، وبدلاً من إنشاد المدائح الدينية على جاري عادتهم، فقد راحوا يلقون الخطب السياسية التي تستثير مشاعر الكراهية عند المالاويين.

كان عثمان ووك، وزير الشؤون الاجتماعية حاضراً في بادانغ مع مجموعة من أعضاء حزبنا المالاويين المسلمين، كان يتوقع الاضطرابات، لأنه قبل تسعة أيام، في حشد جماهيري في سنغافورة، اتهم جميع أعضاء الجمعية المالاويين في حزبنا بأنهم غير مسلمين، ومعادين للإسلام ومعادين للمالاويين وخونة لجماعاتهم وفي بادانغ نفسها، شعر شيئاً ما سيحدث بعد ظهر ذلك اليوم، لأنه كانت تردد أثناء الخطب صيحات «الله أكبر»، معبرة عن الغضب، وليس عن عبادة وتقديس. وراح عيسى المنور، وهو محامي عربي ولكنه مسلم غير صالح يحرض الجماهير بآيات قرآنية ضد أعداء دينهم، وحاول أن يفسر الآيات بأن الله يمنع المسلمين من أن يتعاملوا بمودة مع غير المسلمين، ولكن أولئك غير المسلمين الذين يسيئون إلى ديننا ويطردوننا من بيوتنا فإن الإسلام يصف هؤلاء بالآثمين القساة.

أخبرتني الشرطة بعد أن أنهيت دوري في لعب الغولف في نادي سنغافورة الملكي للغولف أن أعمال شغب مالاوية ـ صينية قد نشبت أثناء الموكب وعكرات الأجواء. فعقدت اجتماعاً مع مسؤولين في الأمن والشرطة لتدارك الأمر، وكانت التقارير عن الخسائر والأحداث ما تزال تتوارد، أولاً عن وقوع ضحايا صينيين، ثم عن وقوع ضحايا مالاويين عندما رد الصينيون بالمثل. اجتمع لي كين مع قيادات الشرطة في كوالا لامبور وأمر بمنع التجول في الساعة 9.30 مساءً حتى الساعة 6 صباحاً. وصفت في حديث إذاعي الساعة 10.30 ليلاً كيف نشبت أعمال العنف.

«في وقت ما بعد الخامسة مساءً مر موكب يتألف من 25 ألف مسلم بالقرب من محطة كالانغ للوقود في منطقة يهيمن عليها الصينيون. فطلب عضو في وحدة الاحتياطي الاتحادي (شرطي أرسل من شبه جزر ماليزيا) من مجموعة تخلفت في المسير الالتحاق بالركب، وبدلاً من إطاعته فإن

المجموعة تعرضت له. وبعد ذلك حدثت سلسلة من القلاقل وانتشرت هذه القلاقل بسرعة في منطقة غيلانغ بأسرها. وفي الساعة 7.30 مساءً نشب الاضطراب في المدينة نفسها».

حضيت على العودة إلى السكينة، وقلت :

«الذي أشعل هذا الوضع ومن أوجده غير معروف الآن. فجميع المؤشرات تظهر أن هناك تنظيم وتخطيط وراء هذا الانفجار لتحويله إلى صدام طائفي بشع... حتى الآن مهمتنا أن نوقف هذه الحماقة.... الإشاعات والحديث العريض عن الانتقام والثأر ليس من شأنها إلا أن تلهب عقول الرجال».

ولكن المشاعر العرقية قد ثارت والإضرار المتعمد قد زاد حدة، والأنباء المشوهة والمبالغ فيها سرعان ما انتشرت بين الناس، وشرع المالاويون في جميع أنحاء الجزيرة في قتل الصينيين، وردَّ الصينيون على ذلك بأعمال انتقامية، ووصلت الخسائر في الأرواح إلى 23 ضحية، فيما بلغ عدد الجرحى والمصابين 454 شخصاً، وعندما جرى إحصاء عدد الوفيات كان عدد الضحايا متساوياً بين الطرفين، وعمل رجال العصابات على حماية الصينيين، والقيام بأعمال الانتقام، وذلك بسبب التصرفات الخشنة من قبل رجال «الفوج المالاوي» و«الوحدة الاحتياطية الفدرالية» واستمرت أعمال العنف بصورة متقطعة على مدى الأيام القليلة التالية، حيث جرى خلالها رفع منع التجول للسماح للناس بالذهاب للتسوق، وانتهت أعمال الشغب والعنف في الثاني من شهر آب (أغسطس).

وعلى الرغم من حمام الدم، استمرت صحيفة «أوتوسان» في حملتها التحريضية، ففي 26 تموز نشرت تقريراً عن جريدة أندونيسية يقول إن «لي مسؤول عن أعمال العنف في سنغافورة» مع أن حكومتي سنغافورة الاتحادية والمحلية كانتا تدعوان إلى الهدوء وإخماد نار الفتنة. وبعد ستة أيام قال البار: إن الأحداث وقعت بسبب

«وجود شيطان في سنغافورة حرض كلاً من المالاويين والصينيين ضد بعضهم بعضاً. ولماذا لم تقع مثل هذه الأحداث في ظل حكم البريطانيين واليابانيين، وديفيد مارشال، وليم يوهوك في سنغافورة؟، فقد وقعت لأن لي كيوان يو كان يحاول تحدي وفصم روحنا القومية... كيف سخر منا بالقول إننا حصلنا على استقلالنا على طبق من فضة. تستطيعون أن تروا بأنفسكم كيف تحدى التونكو بقوله إنه لا يعقل».

كان التونكو في أمريكا، بعد أن التحق «بمؤتمر رؤساء وزراء دول الكومونولث»، في لندن، وتحدث من «صوت ماليزيا» في الولايات المتحدة، حيث قال: إنه صدم بالأحداث، وقال في مقابلة تلفزيونية إن ما حدث «كان أسوأ يوم في حياته». وطار رزاق إلى سنغافورة حيث استقبلته في المطار وقد أخبر الصحافة بصفته رئيساً للوزراء، أن الوضع بات تحت السيطرة ولكنه خطير، ولسوف يستمر حظر التجول إلى فترة غير محدودة، وعزا سبب الاضطرابات إلى أن أحداً يثير الشغب فألقى بزجاجة على المسيرة. كان يعرف من تقارير الصحافيين، أن هذا غير صحيح، وكنت ما زلت آمل أن تضع الحكومة المركزية حداً لجميع هذه الأعمال العرقية ذات الطابع السياسي العرقي.

أعلنت في الإذاعة والتلفزة أنه تم وضع خطط للعودة بالأمور إلى وضعها الطبيعي، وقلت بجرأة: إن هذه الإجراءات ستشمل اعتقال أعضاء الجمعيات السرية ومرتكبي النشاطات ذات الطابع المتطرف. وفي الوقت نفسه إلى تشكيل لجان في جميع الدوائر الانتخابية وجميع الوجهاء الموثوقين من الصينيين والمالاويين والأوربيين ـ الآسيويين لإعادة بناء الثقة فيما بينهم، وعدم التشجيع على تكرار الإشاعات. وتجولت في المناطق التي تأثرت بشدة في الأحداث كي أظهر حضور حكومة سنغافورة، وأحاول أن أعطي الانطباع أننا ما زلنا نستطيع أن نتصرف ونعيد السلام رغم أننا لم نعد مسؤولين عن الشرطة والجيش. وقد كنت أشعر في أعماقي بالأسف لأنني فقدت السيطرة على أدوات ضبط القانون.

استقبال رئيس وزراء ماليزيا تون عبد الرزاق في المطار في 22 تموز 1964، في اليوم الذي تلا أعمال الشغب. وعلى اليمين يسير جوه كينغ سوي.

حض الجماهير في هونغ ليم على الهدوء بعد صدامات عرقية، آب 1964.

فيما بعد نشرت الحكومة مذكرة تصف فيها المجريات التي قادت إلى أحداث العنف. يقول البيان:

«إن الخضوع إلى هذه المذكرة، خلافاً لما كان يجري في الماضي، قد سمح للزعماء السياسيين المتنفذين وللصحف أن تقوم بدعاية سياسية وطائفية مكشوفة لعدة شهور. فمتعهدو الدعاية الطائفية لم يكونوا متعصبين واضحين مع موارد وتسهيلات ضئيلة لنشر رسالتهم... هذه المرة كان الدعاة من ذوي الطائفية العدوانية يشملون أشخاصاً وصحفاً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع الحكومة المركزية والحزب الحاكم في ماليزيا».

استخلصت المذكرة أن أولئك الموجودين في السلطة في كوالا لامبور يكبحون أولئك الذين ينغمسون في دعاية عرفية مثيرة للفوضى والعصيان. لم يضع أحد حداً لها، ولم يحاكم أحد بسبب التحريض على الفتنة، والدليل الناتج بين بوضوح أن أعمال العنف لم تكن عفوية وعرضاً غير مرغوب فيه لعداوات حقيقية بين الأعراق. فالغرض من الحملة كان أساساً لإعادة بناء النفوذ السياسي للمنظمة القومية لاتحاد المالايو (UMNO) بين مالاويي سنغافورة. والهدف الأكثر أهمية كان استخدام مالاويين سنغافورة مخالباً لتفريز الدعم المالاوي للمنظمة (UMNO) في المالايو نفسها. بوضع اللوم بشأن أعمال الشغب على حكومتنا وتصويرها على أنها ضغط على مالاويي سنغافورة، كان مقترفو الشغب يأملون إخافة الآخرين في الاتحاد من أجل أن يلتفوا حول المنظمة من أجل الحماية.

بعد أسبوع من أعمال الشغب أخبر عثمان ووك، الذي كان نائب رئيس تحرير «أوتوسان مالايو»، من قبل مور كبير في «أوتوسان» في كوالا لامبور أنه في الساعة الثانية بعد الظهر في 21 تموز كان يعرف شيئاً عما حدث. سأل عثمان «ولكن أعمال الشغب لم تبدأ قبل الرابعة بعد الظهر فكيف عرفت مسبقاً أن أعمال العنف ستجري؟».

أجاب المحرر «نحن عرفنا مسبقاً. نحن لدينا مصادرنا».

أراد هؤلاء أن يحجزوا الصفحة الأولى للأخبار المهمة. دعا تشين تشي إلى لجنة للتحقيق للبحث في أسباب أعمال الشغب. ولكن في كوالا لامبور قال الوزير الاتحادي خير جوهري: إن الحكومة ستجري فحصاً حول القلاقل وليس تحقيقاً. فلم يريدوا أن يضعوا البار ودور «أوتوسان» تحت المجهر.

لم يكن ذلك إعادة تأكيد كما لم يكن الجو بين الشيوعيين. كان من المهم أن لا يروع السكان الصينيون، وإلا فإن القائمين في المنظمة والمتطرفين سيحققون أهدافهم ـ شعب طيع، وخاضع عندما يُعاملون مواطنين من الدرجة الثانية. بيد أن كثيراً من الصينيين قد أرعبوا نتيجة للانحراف المكشوف للقوات والشرطة المالاوية أثناء أعمال الشغب، وكان من بين نتائج العنف اللامعقول لعزل العرقين عن بعضهما بعضاً. شعر الصينيون أنهم مضطهدون ونظروا إلى جيرانهم المالاويين بارتياب وحذر، فيما كان أن المالاويون الذين عاشوا في الجزء الذي يسيطر عليه الصينيون من الجزيرة، خائفين من التعرض إلى عنف عنصري. أما العائلات الصينية التي كانت تشكل جيوباً من الأقليات في منطقة مالاوية فقد انتقلوا للإقامة مع أقربائهم في أماكن أخرى، حتى لو كان ذلك يعني أن يبيعوا بيوتهم للمالاويين الوافدين بسعر رخيص. وقد حدثت العملية ذاتها بشكل معكوس مع العائلات المالاوية التي انتقلت من المناطق الصينية بالدرجة الأولى لتبحث عن ملجأ في مدارس أو مراكز تجمع حماية الشرطة.

كانت الأحداث أمراً مخيفاً ونفياً لكل من آمنا به وعملنا على تحقيقه ـ التكامل التدريجي وإدانة التقسيم الطائفي، وبات من المستحيل تجاهل أو تجاوز عدم الثقة العميق الذي ينشأ بعد كل عملية اقتتال سواء أكان الضحايا من المالاويين أم الصينيين، وفي مركز جماعة ريفية زرتها، أمسكت امرأة مالوية مذعورة تبلغ من العمر 35 عاماً، بيدي وحكت لي كيف اعتدى عليها عدة رجال صينيين كانوا يريدون اغتصابها، في حين اشتكى رجل صيني خارج مخفر

الشرطة أمامي بأنه تعرض للأذى من قبل الشرطة المالاوية، لأن بعضاً من الصينيين اغتصبوا امرأة مالاوية، وكان الناس يرتكبون فظائع تجاه بعضهم بعضاً متذرعين بأسباب عرقية.

في 14 آب عاد التونكو من أمريكا، وقد انفجر باكياً وهو يتحدث أمام الجماهير الغاضبة في سنغافورة، قال: كنت دائماً أطلب أن يكون الزعماء حريصين في أقوالهم لتجنب أي خلاف فيما بينهم، ولكن بعض اللامبالين منهم في أحاديثهم وخطبهم هم الذين خلقوا هذه الحوادث. وصاح بأعلى صوته: من الذي كان غير مبال أو حريص في خطبه: جعفر البار أم أنا؟ وقلت بدوري: إنني واثق من أن التونكو سيضع المتطرفين في ماليزيا تحت المراقبة، وأكدت على أن لا بديل للتعاون السلمي بين جميع الطوائف والجماعات.

وبعد بضعة أيام جاء التونكو إلى سنغافورة لدراسة الوضع وأكد للمالاويين في «غيلانغ سيري» أنه ستوضع خطط قريباً «لتحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية»، وهو تعبير ملطف يعني رفع سويتهم إلى مستوى الهنود والصينيين، كنت حاضراً وقلت: إن نجاح ماليزيا لا يقوم فقط على الحقوق والالتزامات الدستورية والقانونية، بل إنه يعتمد على الإيمان والثقة، وأنا أعتقد أن التونكو قادر على حل المشكلات التي تواجهه الآن، كنت أوحي له بأنني أثق بأنه سيتخذ الإجراء الصحيح، وكان علي أن أفعل ذلك، فالسلطة الآن في يده.

لم تكن الأحداث ضربة ضد ماليزيا وحدها، فقبل أن تنشب كان الرأي العام العالمي يتطور باتجاه تأييد ماليزيا، كان من الحماقة أن يسمح زعماء UMNO لألبار بأن يصعد الاصطدامات الطائفية في سنغافورة ويعطي لسوكارنو مكسباً دعائياً ـ دليل على أن ماليزيا ترتيب للاستعمار الجديد يحتوي على تهديدات ونزاعات طائفية خطيرة تهدد وحدتها وتضامنها، لقد كان ثمناً باهظاً دفعته الحكومة الماليزية لتعلم حزبنا درساً للمشاركة في الانتخابات المالاوية، وإعادة اكتساب القاعدة المالاوية التي فقدها في سنغافورة في انتخابات 1963م. لقد عرف زعماء المنظمة ماذا سيفعل ألبار بعد قراءة «أوتوسان ميلايو» سوى المتابعة.

بعث الدبلوماسيون في كل من سنغافورة وكوالا لامبور، بتقارير عما حدث إلى حكوماتهم، وأخبر «هيد» لندن «لاشك أن العنصر المتطرف UMNO» قد لعب دوراً كبيراً في إثارة أعمال العنف الطائفية والأولى من نوعها في سنغافورة. وجاء تقرير المفوضية البريطانية في كوالا لامبور:

«كانت أعمال الشغب ذات منشأ سياسي أكثر مما هي ذات طابع ديني، فقد حدثت أعمال شغب مماثلة ولكنها أقل خطورة في الأسبوع الماضي، وقد اشتد التوتر بين الجماعات المختلفة خلال الأشهر القليلة الماضية من خلال حملة دعائية (نظمتها بالدرجة الأولى الصحفية المالاوية البارزة أوتاسان ميلايو) متهمة حكومة حزب العمل الشعبي PAP في سنغافورة بالمعاملة المجحفة للمالاويين هناك. وكانت تلك الصحيفة لسان حال منظمة UMNO لاسيما أمينها العام المتطرف سيد جعفر ألبار.. فخسارة مقاعد مالايو في جمعية سنغافورة التشريعية في أيلول الماضي خسارة لحزبنا وقد ازدادت ضغينة المنظمة بسبب تدخل حزبنا في الانتخابات المالاوية العامة في نيسان (التي لم تكن ناجحة) وجهود حزبنا المثمرة لتشكيل قاعدة تنظيمية في جميع المدن المالاوية الرئيسة».

جاء في تقرير أعدته لجنة استخبارية مشتركة (الشرق الأقصى) من أجل لجنة رؤساء الأركان البريطانية «إن الحملة ضد حزب العمل الشعبي (PAP) قامت بها «المنظمة» وفروعها في سنغافورة وبتأييد من قيادة المنظمة في كوالا لامبور.

وجاء في تقرير القنصل الأمريكي العام آرثر هـ. روسين إلى وزارة الخارجية «إن أعمال العنف كانت ذات «إيحاء سياسي» وهي نتيجة طبيعية لفترة طويلة من الدعاية المضادة لحزب PAP مع تحريض طائفي شديد من زعماء المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو UMNO». وأيد هذا دونالد مك كيو القائم بالأعمال في السفارة الأمريكية في كوالا لامبور في تقريره إلى وزارة الخارجية:

«أخبرني داتو نيك داود (أمين السر الدائم لوزارة الداخلية) أن وزارته (كانت) مقتنعة أن أعمال العنف في سنغافورة قد تسبب بها المتطرفون الماليون. و أقر بأن اجتماع سيد جعفر في 12 تموز وخطبه في سنغافورة قد زادا من القلاقل الطائفية. وإذا كان هناك أي شك بشأن مسؤولية المتطرفين الماليين عن أعمال الشغب في سنغافورة فإن داود قد عزز الشك».

وبعث و. ب. بريتشيت نائب المفوض السامي الأوسترالي في سنغافورة بتقرير إلى كانبيرا يقول فيه: «لا شك أن مسؤولية أعمال العنف تقع مباشرة على UMNO التي قاد أفرادها الحملة الطائفية أو أشرفوا عليها».

واستخلصت دائرة نيوزيلاندة للشؤون الخارجية:

«تبقى الحقيقة أن «المنظمة القومية لاتحاد الماليزيين» (UNMO) ولاسيما زعماءها ينبغي أن يتحملوا المسؤولية عن الانفجار الأخير في إثارة المشاعر العرقية المالاوية. ويبدو لنا أن رزاق وبعض زعماء «المنظمة» الآخرين لم يتصرفوا بالسرعة الكافية لكبح تجاوزات المتطرفين مثل جعفر ألبار كما كنا في شك إزاء رد فعل الحكومة الاتحادية تجاه أعمال العنف».

خصص سوكارنو إذاعة تخص صينيي سنغافورة على عدم تأييد ماليزيا، التي قامت من أجل قمعهم. ثم، في 17 آب أنزلت جاكارتا 30 ملسماً في الشاطئ الغربي من جوهر المقابل لسومطرة لإثارة الفتن ومن حسن الحظ أنه تم إيقافهم، وبعد أسبوعين أرسل الأندونيسيون، 30 رجلاً آخرين بعمليتي إسقاط جوي وتم اعتقال معظمهم، فقد كانوا من القوات شبه العسكرية وبالفعل لقد تجاوز سوكارنو الحد. وتقدمت ماليزيا بشكوى رسمية إلى مجلس الأمن الدولي، وعزز البريطانيون قواتهم بحاملتين مع دعم بحري وجوي إضافيين، وكان سوكارنو قد وعد بإيقاف مثل هذه العمليات.

في اليوم نفسه نشبت صدامات مالاوية ـ صينية في غيلانغ. فقُتل سائق عربة، كما هوجم سائق آخر. فرغم حظر التجول استمر العنف ثلاثة أيام قتل خلالها 13 شخصاً وجرح 109 أشخاص.

وفي الاحتفالات المئوية «للاشتراكية الدولية». قال تشين تشي رئيس الوزراء: إن عملاء أندونيسيا هم الذين سببوا أعمال الشغب. وقد أصبح الوضع دقيقاً للغاية بحيث إن أية محاولة من جانب المالاويين سيعقبها أعمال انتقامية من جانب الصينيين.

بعد هذا الانفجار الثاني لأعمال العنف أمر مجلس الوزراء الماليزي، بضغط متزايد من جانب سنغافورة، وذلك بتشكيل لجنة تحقيق برئاسة وزير العدل ف.أ. تشوا، للتحقيق في أسباب القلاقل هنا، وكذلك أحداث القلاقل هنا، وكذلك أحداث القلاقل التي جرت قبل ذلك في بوكيت ميرتاجام في محافظة ديلزي ويليسلي، وقد أخفت الحكومة الاتحادية ذلك عن الصحافة، ولم تبدأ اللجنة تحقيقاتها إلا في 20 نيسان عام 1965، أي بعد سبعة أشهر.

في الجلسة الافتتاحية قال مستشار الحكومة الماليزية: إنه سيبين أن واقعتي القلاقل وأحداث الشغب كانتا من صنع العملاء الإندونيسيين في سنغافورة وجاء بـ 85 شاهداً ليقدموا الدليل على ذلك، ولكن شهادة الشهود الخمسة الرئيسيين الذين جاء بهم لم يشهدوا بأن الأمر كان كذلك، فقد نفوا جميعهم بقوة أن يكون لإندونيسيا أية علاقة بالقلاقل وقد جرى حوار مع شاهد مهم على النحو التالي:

سؤال: إذا كنا شهدنا خلال أشهر أيار وحزيران وتموز جميع هذه الأشياء المختلفة التي أخبرتك عنها ـ هذه الدعاية المفتوحة والمستمرة، فهل توافق على أن مشاعر المالاويين ستتصاعد كثيراً؟

جواب: نعم.

سؤال: وهل كانت كذلك في يوم أحداث الشغب أم لا؟

جواب: نعم.

سؤال: هل توافق على أن هذه الدعاية الاتهامية ـ الشديدة كانت عاملاً من عوامل أعمال الشغب؟

جواب: نعم.

ومن الأهمية بمكان الضوء الذي ألقاه كينغ سوي على الأحداث، فقد قابل رزاق في كوالا لامبور في 28 ـ 29 تموز 1964، أي بعد أسبوع واحد من اندلاع أعمال العنف الأولي، وقد أخبره رزاق أنه وجد مخرجاً، كان راغباً في تشكيل حكومة وطنية في ماليزيا، يمثل فيها حزبنا في الوزارة الاتحادية ـ شريطة أن أستقيل من رئاسة وزراء سنغافورة، ويمكنني أن أحصل على مركز في الأمم المتحدة وأقوم بمساهمة ناشطة هناك. وبعد ثلاث سنوات يمكن مراجعة الموقف.

سأل كينغ سوي أن ألبار سيستبعد بوصفه بديلاً. أجاب رزاق، بلا. وقد كان رزاق متأكداً من كلامه عندما أخبر كينغ سوي أن ألبار و«أوتوسان ميلايو» هما تحت سيطرته تماماً وأعطى تعهداً واضحاً إلى كينغ سوي أنه يستطيع السيطرة على «أوتوسان». كتب كينغ سوي مذكرة بعد اللقاء مباشرة جاء فيها: «أقر رزاق أن رأيه كان مقصوداً سواء أنشب الاضطراب أو لم ينشب في سنغافورة، ورأى أن الاضطراب لن ينشب. واعترف بأنه ارتكب خطأً في الحكم على الأمور. ولو تنبأ بالأمر لاتخذ إجراء».

سجل كينغ في تاريخه الشفوي عام 1982 مايلي:

«الآن، يرقى هذا إلى اعتراف بأنه كان متورطاً في هذه الحملة الشاملة لإثارة المشاعر العرقية والدينية في سنغافورة. كما أن دخول ألبار إلى سنغافورة وحملاته فيها وتأييده («أوتوسان مالاوي») كان يحظى بتأييد كامل من رزاق، وإن اضطراب في رأيه لن ينشب فهذا يعني أنني لا أوافق بصراحة على ذلك. لا يمكن لعاقل أن يعتقد أن هذه الحملة الطائفية

الصاخبة ترافقت مع موكب منظم من المالاويين بحيث لجأت مجموعات «بيرسيلات» (الفنون العسكرية) إلى القوة، لا أحد يصدق ذلك. لابد أن تكون النتيجة أعمال عنف طائفي.

الحق أنه قبل بضعة أيام، ربما أكثر من أسبوع قبل نشوب أعمال العنف، أتذكر أن السيد لي كان قلقاً للغاية ويشعر في أعماقه أنه سيكون هناك اضطراب طائفي. فقد ناقش ذلك معي. وكنت منهمكاً جداً بالمسائل الاقتصادية والمالية. لم أكن على اطلاع حسن وبدوت متشككاً حيال ذلك. مرة أخرى، إنها مسألة إصدار حكم سياسي ـ معرفة الحدث ـ وهذا لم يكن متوفراً لي. وعندما سألت السيد «لي» عن قرب، تنهد وغير الموضوع. لا بد أنه ظن أنني جاهل جداً بهذه المسائل. وقد كنت كذلك بالفعل. ولكن مهما كانت النتائج فإن أعمال الشغب قد وقعت، وكان رزاق متورطاً فيها، وكان من الواضح أن قصده إزاحة السيد «لي» من الوزارة. فقد كان ذلك هدف حملة ألبار».

37. سنغافورة ـ قمة التوتر في كوالا لامبور

كنت في بروكسل لحضور احتفالات «الاشتراكية الدولية» عندما انفجرت موجة العنف الثانية في الثاني من أيلول. هل ينبغي أن أعود سريعاً للتعامل مع الوضع؟ قررت عدم الرجوع لأن عودتي قد لا تقدم كثيراً أو تؤخر في مجرى الأحداث. إذ ما إن ينشب العنف فثمة دينامية وزخم يتميز بها ويحتاج إلى قوة شرطة قوية لقمعه. وهكذا بقيت في بروكسل.

في يوم الأحد 6 أيلول عام 1964 كان هناك مسيرات للاشتراكية الدولية في أوربا. فوجئت بالعدد الكبير من المحاربين القدماء في لباس مدني، وكثير منهم كان يتزين بالنياشين وبمظهر الذين يعزفون الموسيقى العسكرية التي تزودهم بالحماسة. عاد ذهني إلى شهر شباط عام 1942، عندما كنت أشاهد العازفين من ساكني الجبال وهم يعبرون شارع «كوزواي» في سنغافورة.

لم يكن من المسموح لنا أن نستخدم فرقة موسيقى الشرطة في عرض «يوم دولة سنغافورة» في حزيران 1964. فالحكومة الاتحادية التي أصبحت الآن مسؤولة عن الشرطة قد قررت إغلاق الباب في وجهنا. كنا منزعجين ولكن لم يكن باليد حيلة. وعندما رأيت هذه الصفوف الكثيرة من الفرق الموسيقية من عدة أقطار في بروكسل، قررت أن أشكل مثلها في مدارسنا وفي «اتحاد الشعب». فعلي أن أحافظ على الروح المعنوية لشعبنا.

ولدى عودتي أخبرت مدير «اتحاد الشعب» أن يبحث عن أعضاء فرقة موسيقية متقاعدين من «فوج المشاة السنغافوري» وأن يأخذ منافسي في غرف الكمان في «كلية رافيلز» كوان سي كيونغ، السكرتير الدائم الآن في وزارة التربية، لتهيئة برنامج لعازفي الآلات النحاسية وفي جميع المدارس الثانوية. نجحت

خطتي. وفي اليوم الوطني لدولة سنغافورة في حزيران 1965 شاركت فرقتنا في العرض، كما شارك عازفون من بعض المدارس الثانوية. أظهرنا لكوالا لامبور أنهم لا يستطيعون أن ينتقصوا من قدر شعب مصمم وواسع الحيلة. وفيما بعد وسعنا البرنامج بحيث يشمل المدارس الابتدائية، ثم أن نرفعه ليشمل الجامعة. وسرعان ما صار لدينا فرقة موسيقية للشباب. كنت أعتقد أن الموسيقى جزء ضروري من بناء الأمة. إنها ترفع الروح المعنوية للشعب.

هناك الكثير مما يشاهده المرء في بروكسيل ويتابعه، وفي خطابي في المؤتمر أكدت للاشتراكيين الديمقراطيين في آسيا أنه ينبغي أن يكونوا على مستوى التحدي الذي تفرضه الأساليب الدعائية والتنظيمية للشيوعيين وتكتيكاتهم، وهم لا يستطيعون ذلك إلا إذا توفر الشرطان:

الأول: مستوى معقول من الحالة المعيشية، والثاني: الإدارة الفعالة. وخلاف ذلك فإنهم لا يستطيعون أن ينجحوا أو يحافظوا على بقائهم في الدول المستقلة حديثاً. استمع إلي بإصغاء ولي براندت، عمدة برلين وأحد أبرز الزعماء الاشتراكيين المعروفين الذي قابلتهم في بروكسل، وهنأني على خطابي. والرجل الذي تفاعل مع كلمتي بكثير من الحرارة كان أنطوني غرين وود، وزير الظل العمالي بشؤون المستعمرات والذي كان مسؤولاً في ذلك الوقت عن «الدائرة الدولية» في الحزب.

كان غرين وود رجلاً طويلاً في بداية الخمسينيات من عمره، حسن الهندام ويعتني بمظهره الخارجي، وكان بالإضافة إلى ذلك ودوداً وقريباً إلى القلب ولا يحاول الترفع. كان الرجل المناسب كي يكون ناطقاً باسم شؤون المستعمرات، لتعاطفه الحساس مع ضحايا الظلم والاضطهاد. فوالده أرثر غرين وود.

بدأ حياته نقابياً وانتهى في «مجلس اللوردات» وكان فخوراً بأسلافه. التحق هو نفسه بمدرسة عامة في أكسفورد مما جعله شخصية شعبية، ولم يكن يخجل أبداً من نشأته البروليتارية. بل كان رجلاً وودوداً له قلب طيب كبير. لقد أحببته.

أمضينا بعض الوقت نتحدث عن الثورات ذات الطابع العرقي في سنغافورة، وسألني لماذا لم أندفع عائداً إلى الوطن فنوهت بأن هناك المحرضين المالاويين من ذوي الاتصالات الرفيعة كانوا خلف هذه الاضطرابات. فهمني وعبر عن موافقته على الموقف الهادئ والمتعقل. ودعاني إلى مقابلة أعضاء آخرين في حزب العمال البريطاني، وأن أحضر دعوة إلى الغداء في مجلس العموم يوم الحادي عشر من أيلول، حيث سيتواجد أعضاء حزب العمال في البرلمان ومرشحو الحزب. إنه حفل الغداء السنوي للرابطة البرلمانية وسيجري عشية تسمية الأعضاء للانتخابات العامة، قبلت الدعوة وطرت إلى لندن.

كنت قد قابلت قبل ذلك، في شهر كانون الثاني (يناير) وزير الدفاع المحافظ بيتر ثورينكروفت في سنغافورة وأخبرته مهما كان موقف حكومته يبدو حازماً، فإن الإندونيسيين كانوا يعرفون أن حزب العمل قد يشكل الحكومة القادمة بعد الانتخابات العامة في الخريف. وقلت: إذا كان هارولد ويلسون بوصفه زعيماً للحزب قادراً على توضيح وتقدير التزامات بريطانية الدفاعية، فسيخمد أي أمل لسوكارنو بأن يتحدث إلى هارلد ويلسون عند عودته، وبموافقته كتبت إلى ويلسون كلمات بهذا المعنى.

حان وقت الجد. فقبل الغداء في 11 أيلول قابلت ويلسون في غرفةٍ في مجلس العموم بوصفه زعيم المعارضة. وتمشينا معاً لمدة 40 دقيقة. كان موضوع مجابهة إندونيسيا لماليزيا يشغله، وكذلك أعمال العنف المالاوية ـ الصينية في سنغافورة. فالقوات البريطانية موجودة للدفاع عن ماليزيا، وأراد أن يعرف ما إذا كان الاتحاد الجديد قادراً على الصمود على المدى البعيد. لقد تقابلنا من قبل عدة مرات، وجهاً لوجه، وكنت شديد الصراحة معه عند تحليل مشكلاتنا، أخبرته أنه بغض النظر عن المجابهة التي تزيد من شعور التونكو بانعدام الأمن، فإن التونكو ورفاقه يجدون صعوبة في التخلي عن سياستهم في المحافظة المالاوية الكاملة من أجل وضع متوازن مع الأعراق الأخرى، رغم ضرورة هذا الآن

لأن تركيب أو طبيعة تكوين الهيئة الانتخابية قد اختلف الآن بانضمام سنغافورة و ساراواك وصباح، قلت له: إنني وزملائي نوافق على أن هذا يحتاج إلى وقت كي يتغير، وإننا لا نتصور أن يستلم السلطة حزب ذو أكثرية غير مالاوية لمدة عشرين سنة على الأقل، فنحن لا نستطيع ولا نقبل في ماليزيا أن يحكمها المالاويون بحيث يكون فيها غير المالاويين في حالة معاناة. سيكون هذا معارضاً للدستور الذي اتفقنا عليه مع التونكو. وافقني، كما وافقني غرين وود من قبل على مقاربتي الموضوعية والعقلانية.

كان ويلسون في حالة معنوية عالية، ويتوقع الفوز في الانتخابات العامة، وأكد لي أن الحكومة العمالية ستستمر في دعم ماليزيا ضد المجابهة الأندونيسية. وكان يريد أن تقوم بريطانيا بنصيبها في احتواء التخريب السوفيتي في جنوب شرق آسيا، والمجابهة هي إحدى عناصر هذا التخريب الذي أوجده السوفيت من خلال إمداد أندونيسيا بالأسلحة. وهو يتطلع إلي وإلى حزبنا PAP، في سنغافورة لدعم سياسة حزب العمال في هذا الشأن. كان لقاءً دافئاً ودياً، وكانت أمسية لطيفة من أمسيات أيلول، فقد تمشينا، فيما الشمس ما تزال مضيئة في الشرفة المطلة على نهر التيمس. كان في حالة نفسية جيدة وتحدث بحيوية كيف ينوي أن يدير حكومته. كان لديه بعض الرجال المقتدرين من جيله في حكومة الظل. كان يريد لبريطانيا أن تستعيد مركز القيادة في العلم والتكنولوجيا.

كان ذاك اللقاء من أهم اللقاءات في حياتي، فإذا فاز حزب العمال في الانتخابات، وأصبح ويلسون رئيساً للوزراء، فسيعرف التونكو أن عليه أن يكون معتدلاً في سياسته العرقية ضد حزبنا. وبنجاح أليك دوغلاس هوم رئيساً للوزراء، شعر التونكو بصلة روحية بين اثنين من النبلاء، كان واثقاً أن دوغلاس هوم سوف يتفهم احتياجاته وأسلوبه في الحكم. ولكن التونكو سيشك في هارولد ويلسون وزمرته من النبلاء الراديكاليين من خريجي أوكسفورد والذين يعتبرونه مفارقة تاريخية، إذ يشبه زعماء إفريقية القبليين. لذا كنت مهتماً بنتائج الانتخابات التي ستجري في تشرين الأول.

كان هناك 600 من حزب العمال البريطاني من أعضاء مجلس العموم ومن المرشحين المحتملين على الغداء. طلب مني ويلسون، بعد أن شجعه غرين وود، أن أتحدث أثناء تناول الحلوى. فتحدثت عن مشكلات «مجابهة إندونيسيا لماليزيا» وكيف أن الاستقرار في المنطقة وبقاء ماليزيا كانا يعتمدان على حل بريطاني للحيلولة دون ابتلاع دولة كبيرة لجار أصغر بالقوة. وفي جال شكل «العمال» الحكومة القادمة فإنني آمل أن تحترم الالتزامات التي تعهدت بها حكومة المحافظين البريطانية. وقلت: إن الشعب في الوقت الحاضر في الدول النامية سوف يخلق مجتمعاً أفضل وأكثر عدالة كالشعب البريطاني الذي قرأوا عنه. لقي كلامي تجاوبا لدى النواب العماليين بعيدي النظر وعزز موقفي لدى ويلسون. وهذا ما حقق فرقاً حاسماً تجاه الأحداث في سنغافورة في السنة القادمة. وفي وقت متأخر من تلك الأمسية أخبرني غرين وود أن كلامي وجد صدى طيباً لدى الحاضرين وأنني ربحت تأييدهم لماليزيا.

عدت إلى سنغافورة في 13 أيلول متأكداً من تأييد حزب العمال البريطاني لي، فقد أصبح لدي أصدقاء فيه بالإضافة إلى صداقة بعضهم التي تعود إلى أيام دراستي في كيمبريدج، ولكن عندما حطت الطائرة في سنغافورة وجدت الجو مختلفاً تماماً، فقد كان المطار مزدحماً برجال شرطة مكافحة الشغب مدججين بأسلحتهم وبزجاجات الغاز المسيل للدموع، فيما ازدحمت جمهرة كبيرة خارج المطار. وكان «الباريسان» قد حاولوا في اليوم السابق القيام بمظاهرة قوامها 7 آلاف شخص خارج المطار، ولكن الشرطة قمعتهم قبل أن يتجمعوا، واتهم 77 شخصاً، بمن فيهم عضو البرلمان عن «الباريسان»، بتهمة إثارة الشغب. لقد خطط المتظاهرون لاستقبالي استقبالاً حاراً.

ولم يكن هذا كل شيء، فقد وجدت صعوبات داخل الوزارة نفسها، إذ جاءني عدة وزراء، على انفراد لرؤيتي وإعلامي عن عدم رضاهم عن الطريقة التي عولجت بها الاضطرابات في غيابي. وتشين تشي، بصفته رئيساً للوزراء، كان

عصبياً وفرض منع التجول فجأة، بدون فترة إهمال، في وقت كان الناس في أشغالهم ومحال عملهم والطلاب في المدارس، مما زاد في الإنذار وبسبب الذعر لأنه كان على كل فرد أن يهرع إلى بيته. اطلعت على تحفظات الوزراء، ولكنني قررت أن أترك الأمور كما هي، كنت محبطاً للغاية، ولكنني عزمت على ألا أجعله يسوء من خلال إظهار علامات اليأس، إذ لو أردنا أن نقاتل ونكسب هذه المعركة، فإن معنويات السكان ورغبتهم في المقاومة لهي ذات أهمية بالغة.

وبعد أسبوع من عودتي كان علي أن أفتتح رسمياً البناء الجديد «لغرفة التجارة الصينية في سنغافورة» في شارع هيل. إذ كانت معنويات التجار الصينيين منهارة، وقد جاء كوتيك كين ليراني ذات مساء في «سري تيماسيك» وقد بدا مذعوراً، إذ لما كان قد طلب من الناطقين بالصينية بأن يصوتوا للخيار «آ» في الاستفتاء من أجل الانضمام إلى ماليزيا، فهو يشعر نفسه مسؤولاً بمرارة عن مأساتهم الراهنة، وتعاستهم عندما وقعوا ما بين سندان المشاغبين والقائمين بأعمال العنف المالاويين، ومطرقة قوات الشرطة والجيش المالاوية والتي كانت معادية للصينيين بشكل مكشوف، ما الذي يمكن عمله؟.

نظر إلي بإمعان وقال: «لا نستطيع أن نتخلى عن الصينيين».

قلت له: إن حقوقنا مصونة بالدستور، ولن أسمح لأحد بأن يتجاهل ذلك. لقد كانت مهمتنا توحيد وحشد الناس لتأييد الدستور واحترامه، لن يكون هناك تمييز بين الأعراق، إلا ما ورد في الدستور، الذي أعطى المالاويين نسبة خاصة من التعليم والوظائف، وإجازات العقود في شبه جزيرة ماليزيا فقط.

قال لي: «لديك علاقات طيبة مع حزب العمل البريطاني، ألا تستطيع أن تجعلهم يساعدوننا في هذا الأمر الصعب؟ فمن الصعب أن نعيش هكذا».

شعر أن حزب العمل إذا شكل الحكومة فسيكون أكثر تعاطفاً تجاه حزب اشتراكي غير طائفي في سنغافورة من التعاطف مع حزب مالاوي طائفي ويميني في كوالا لامبور. كان يشعر بإحساس الجماعة الناطقة بالصينية التي وجدت أن

من الظلم أن تعيش في حالة دائمة من الخوف. فأعمال الشغب الطائفية الأولى قد تولدت نتيجة عواطف مكبوتة طوال شهور ثم فجرتها مجموعات (بيرسيلات) المالاوية في شبه الجزيرة. وعندما نشبت أعمال الضرب والقتل اللامعقولة لأناس أبرياء، كان من السهل إثارتها مرة أخرى. فقد أصبحت العلاقات متأزمة ولن يحتاج الأمر لوقت طويل لإثارتها ثانية.

وعندما افتتحت مبنى غرفة التجارة الصينية «الجديد أعطيتهم دفعة من الحماسة ورفع الروح المعنوية». كان عليّ أن أظهر الثقة بنفسي كي أشبع الثقة فيهم، وكنت واثقاً أن للصينيين مستقبلاً في ماليزيا. وقلت: «طالما نحن ماليزيون فهناك ماليزيا»، وقارنت ما بين أحداث الشغب في تموز وأحداث الشغب التالية التي جرت في أيلول. ففي الأحداث الأولى قد لا يكون زعماء كوالا لامبور قد عملوا بالتنسيق مع زعماء سنغافورة. ولكن في الأحداث الثانية عملنا معاً بانسجام كي نحارب الطائفية».

في اليوم نفسه تحدث التونكو في حفل استقبال إقامة «تحالف سنغافورة». وقد لمس الوتر الصحيح وحث زعماء سنغافورة جميعاً على نبذ الخلافات الطائفية، والائتلاف جميعاً، «كي ندافع عن أرضنا» ضد العدو المشترك، وقال: إنه سيشكل لجان سلام، نظراً لأن لجان النوايا الحسنة لم تعمل بكفاءة. وتساءلت عن الفارق بين هذا وتلك ـ لم أعرف ما إذا كان ما يريد أن يفعله سيكون مجدياً، إذا لم يتضمن اعتقال المتطرفين، ولكن هذه هي طريقة التونكو، إنه يحب أن يلعب دور أب الأمة، وكان علي أن أساعده بقدر ما أستطيع.

في 25 أيلول ذهبت إلى كوالا لامبور مع تشين تشي وكيم سان لرؤيته، اجتمعنا في الصباح كي نتحدث، وتابعنا مناقشاتنا ليلاً عندما دعانا التونكو إلى العشاء. قال تشين تشي: لا لجان النوايا الحسنة ولا لجان السلام ستكون مجدية في فرض القانون والنظام إذا استمرت مجموعات الشباب في الثورة، وأضاف: «وفي مثل هذا الوضع فإن تصرف الشرطة بفعالية أمر ضروري، نعتقد أنه يجب اتخاذ

إجراء ضد جميع هؤلاء الأشخاص المسؤولين عن اقتتال الطوائف فيما بينها»، ذلك هو لب المشكلة، فإذا عملت الشرطة بكفاءة وسرعة،بدون تفرقة عنصرية، فسيكون من الصعب على الثائرين والقائمين بأعمال الشغب أن يكسبوا زخماً.

في اليوم التالي أبلغ تشين تشي الصحافة أنه قد تم الوصول إلى تفاهم كامل بين الدولة والحكومات المركزية بعد سوء التفاهم الأخير، وقال: إن المناقشات قد ساعدت على إزالة الشكوك والمخاوف حول القدرة على العمل الجماعي من أجل نجاح ماليزيا، وأن الخلافات الحزبية سنلقيها جانباً، فمصالح ماليزيا لها المكان الأول. قلت: إن كلا الطرفين قد وعد بتجنب القضايا الحساسة المتعلقة بمواقف الطوائف في ماليزيا، وإن الجهد الأعظم سينصب على حشد الشعب ضد العدوان الإندونيسي. اقترحت ووافقني التونكو على وقف تدهور الموقف. وإننا سوف نمتنع عن توسيع فروع حزبنا ونشاطاته أملاً في بعض الإرجاء للعمل السياسي.

وفي قرابة الساعة الخامسة والنصف من صباح 17 تشرين الأول (أكتوبر) صحوت في كوالا لامبور لأستمع إلى محطة بي بي سي BBC فقد أغلقت نتائج الانتخابات البريطانية النهائية. وفاز حزب العمال. فشعرت بارتياح بالغ. لأن هارولد ويلسون كان سيتولى منصب رئيس الوزراء. وبذلك يتحسن وضعي، فالتونكو سوف يتعامل مع حكومة بريطانية عمالية لا تتعاطف مع الزعماء الإقطاعيين الذين ينتقصون من قدر المعارضة الديمقراطية الموالية التي تتجنب العنف.

بدت الأشياء وكأنها تسير سيراً حسناً، ولكن تفاؤلي سرعان ما تبخر. ففي اليوم نفسه قال تان سيو سين، في حفل غداء أُقيم على شرفه من قبل «اتحاد هوكين كلان»: إن سنغافورة لا تستطيع أن تنسحب، من ماليزيا لأن الدستور لا يسمح بذلك. كان واثقاً من أن الجزيرة ستتقدم وتزدهر، ولكنها لا يمكن أن تكون «الواحة الوحيدة للرخاء في صحراء من الفقر»، تنسحب؟ عندما عدت إلى سنغافورة تصديت لملاحظاته وقلت: إن شعب سنغافورة كان أكثر اهتماماً بجعل

إنشاء ماليزيا مشروعاً ناجحاً، وكان من سوء الحظ أنه تكلم عن انسحاب عندما وافق على سنتين من الهدنة لإيقاف الانشقاق الطائفي الذي يمكن أن يفجرها. رد تان بأن أعلن هذا البيان ليقضي على شائعات قوية تقول: إن سنغافورة تعتزم على أية حال الانفصال، ولم يكن هناك تلك الشائعات فقط،فقد كان علي أن أنفي شائعة أخرى وهي أنني اعتُقلت من قبل الحكومة الاتحادية في كوالا لامبور.

في الأسبوع التالي أعلن خير جوهري عن هزة كبرى في «تحالف سنغافورة» لإزاحة حكم حزبنا PAP في الانتخابات الرسمية القادمة التي يفترض أن تجري في 1967. وسارع تشين تشي إلى أن يطلب من «التحالف» أن يتحرر من موقف مهلة السنتين الذي لا ينطبق إلا على حزب PAP، وأنكر خير معرفته بالمهلة، وبعد اجتماع مع التونكو في اليوم التالي، أصدر «تحالف سنغافورة» بياناً يفيد أن التخلي عن السياسة الحزبية لسنتين يثير فقط المسائل الطائفية، ولا يعني أن التحالف لا ينبغي أن يعيد الانتظام في بنية فعالة، وكان التونكو يتوقع أن تفسر جميع الاتفاقيات لصالحه. كان تشين تشي غاضباً، ولكن لما كان خير والتونكو قد قالا: إننا أحرار في توسيع أحزابنا السياسية الخاصة، بدأ تشين تشي وراجا وبانغ بون وكون تشوي الاتصال بأصدقائهم في مدنهم لبناء تأييد واسع، وأعلن تشين تشي أن حزبنا سوف يعاد توجيهه بحيث يستطيع أن يحصل على مساندة شعبية في الملايو. فالحزب لديه أعضاء في كل البقع الرئيسية من البلاد وعندما يحين الوقت المناسب سيعيد تنظيمها في فروع.

شرعت المخابرات الإندونيسية تستفيد من هذه التوترات،وبعثت إلي بإشارات عبر تجار صينيين، تعد فيها بأن إندونيسيا سوف تستأنف التجارة مع سنغافورة إذا ما انسحبنا من ماليزيا. ومن أجل إيقاف مثل هذه المحاولات لتقسيمنا كشفت عن محاولة جاكارتا في الجمعية التشريعية في سنغافورة في 12ك 2 (نوفمبر) قائلاً: إن الإندونيسيين ينبغي أن يفهموا أخيراً أن ماليزيا ليس من السهل بلعها وعليهم أن يتعلموا العيش معها وتبادل التجارة معها.

ولكن الروح المعنوية في سنغافورة كانت راكدة، وبدت المدينة تعيسة، فمع ضعف قوة القانون، سمح الرعاة الهنود لقطعانهم من البقر والماعز أن ترعى في حقول الملاعب والأعشاب في المناطق المجاورة، وقد كنت أستطيع أن أرى من نافذة مكتبي القطعان ترعى في «إيسبلاند». وبعد انفجار أحداث العنف مرتين بات المكان قذراً مهملاً، مع مزيد من البقر والماعز تسرح في الشوارع، ومزيد من الكلاب الشاردة، والبعوض والذباب والحشرات، حتى جدران «مستشفى سنغافورة العام» شوهت وحفرت. صممت على أن أوقف هذا الانحدار، فدعوت إلى اجتماع في «مسرح فيكتوريا» طلبت فيه حضور جميع الموظفين المسؤولين عن الصحة العامة، بحضور ممثلي الإذاعة والتلفزة أيضاً، لحثهم على إعادة بناء معايير النظافة والأناقة، وأعطينا الرعاة مهلة لبضعة أيام لترحيل قطعانهم إلى أماكنها المعتادة، وحذرنا من أن هذه القطعان ستتعرض للذبح لصالح الجمعيات الخيرية، إذا ما تكرر نزولها إلى المدينة. وكان لهذا القرار فعل السحر، فقد عادت المدينة للتأنق والتألق.

أشعل تان سيوسين ثانية النار. ففي حديثه عن الميزانية في 25 ت 2 أعلن عن إجراءات جديدة وقاسية لزيادة العائدات، بما في ذلك ضريبة بنسبة 1.5% على الأرباح الإجمالية وضريبة بمقدار 2% على مجموع الرواتب في جميع المحلات التجارية. وهذا من شأنه أن يضر بسنغافورة كثيراً. إذ كنا بحاجة لإيجاد مزيد من العمال، وزيادة كلفة القوة العاملة من شأنه أن يثبط الصناعات ذات العمالة الكبيرة.

وقد أشرت إلى أن هذه الإجراءات لن تساعد على تصنيع ماليزيا، ومن شأنها أن توسع الفجوة بين من يملكون والذين لا يملكون. وفي هذه الخطبة الأولى في المجلس النيابي الاتحادي قال كينغ سوي أيضاً: إن الضرائب انكفائية وإن توقيعها غير مناسب. ستدفع بحيث إن سنغافورة 25% من ضريبة الدخل القومي مما لا يتناسب مع تعداد سكانها واقتصادها، وكذلك شأن نسبة الـ 40% من العائدات.

وعندما عارض مؤتمر النقابات في سنغافورة هذه الإجراءات ووصفها بأنها معادية للعمال، اتهم تان حكومتنا باستخدام جميع الوسائل التي في حوذتها لإثارة العواطف ضدهم.

قال تان: إنه أراد أن تُراجع ترتيباتنا المالية سريعاً، مدعياً أن الأعباء الضريبية في سنغافورة هي الأدنى في كل ماليزيا. فقد كان يتطلع إلى أن تدفع سنغافورة 60% بدلاً من 40% من عائداتها إلى الحكومة المركزية.

بدا «التونكو» نفسه عدوانياً في غداء لكلية الطب في سنغافورة في 9 ك 1، قائلاً: إن سنغافورة «مشغولة بالسياسة وستجد أن هناك تنافساً أقل من أي مكان آخر في ماليزيا، لهذا كنت قلقاً جداً إزاء انضمام سنغافورة إلى الاتحاد». فانتقاداته للضرائب الخاصة بالعائدات والرواتب لدينا قد أزعجتنا لأنه أضاف:

«إذا وجدنا أن أي نوع من الضرائب يبدو غير قابل للتنفيذ أو موضع اعتراض عندئذ نستطيع أن نجري تغييرات... وإذا لم يوافق السياسيون من مختلف الألوان والميول والتطلعات في سنغافورة فإن الحل الوحيد هو الانفصال، ولكن أي كارثة هذه ستكون لسنغافورة وماليزيا».

38. إعادة ترتيبات دستورية ؟

لا بد أن التونكو قد شعر أن ماليزيا تسير نحو الاضطراب. عندما قابلته في كوالا لامبور في 19 كانون الأول (ديسمبر) إذ لم يكن في حالته المرتاحة الطبيعية. فقد تجاوز مداعباته ونكاته المعتادة ودخل مباشرة إلى شؤون العمل، وتحدث بصورة جادة لمدة نصف ساعة. كان مباشراً، واقترح لأول مرة «إعادة ترتيبات» دستورية. وكان قد تحدث حول ذلك ضمن دائرته الداخلية ـ رزاق، و إسماعيل وتان، وخير جوهري ـ حول هذا الموضوع بعد اجتماع مجلس الوزراء قبل يوم.

كرر التأكيد على أن الدفاع أمر حيوي بالنسبة له، وأن التجارة ستستمر كالمعتاد، ولكن يجب أن نتعاون كي نمول الدفاع. فسنغافورة من المقرر أن تكون «مشاركة، ومستقلة، ولكنها جزء من شبه الجزيرة». وأراد أن تكون كل من ماليزيا وسنغافورة عضوين في الأمم المتحدة، نستطيع أن نتبادل السفارات وربما ممثلياتنا في الأمم المتحدة. لم يكن واضحاً في فكره وبماذا يريد، ولكن قال: إن التاريخ المحدد لإنجاز هذه الأشياء سيكون قبل الميزانية التالية، وفي تلك الأثناء أستطيع التفكير في المشكلات. قلت له: طالما أنه على قيد الحياة يستطيع أن يمسك مختلف القوى.

أجاب: «يوجد كثير من الصينيين الشوفينين في سنغافورة، وكثير من الشيوعيين الصينيين، فعليك القيام بأشياء كثيرة للصينيين لأنها دولة صينية، ولكن هناك كثير من المضاعفات في الملايو. لي سيوك يو (نائب وزير التربية من اتحاد المالاويين الصينيين MCA) يريد الآن كلية صينية في الملايو، وإذا ما انفصلنا تستطيع أن تكون مختلفاً، تستطيع أن تعتبر بجامعة نانيانغ، كما أن سياساتك اللغوية يمكن أن تختلف بعد أن تتضح الأمور في أذهاننا ونستطيع أن نخبر البريطانيين».

أشـرت إلى أن المصـالح البـريطانيـة يجب أن تحـفظ إذا كنا نريدهم أن يستمروا في البقاء في قواعدهم في سنغافورة والدفاع عن ماليزيا، وسألت هل ستكون سنغافورة مثل إيرلندة الشمالية أو إيرلندة الجنوبية، فأجاب: «في مكان ما بينهما».

في 31 كانون الأول (ديسمبر) التقيت بإسماعيل لمدة ساعة، كان أكثر تحديداً ومنطقية. «فالتونكو يشعر بهذه الأشياء بحدسه». أما إسماعيل فيريد أن يعود إلى الخطة الأصلية، أي أن ترعى سنغافورة من أجل «التونكو». وعندما سألته أن يشرح أكثر بالتفصيل، تهرب من الإجابة، وقال: من الأفضل أن تبقى صامتاً.

شعرت أنهم جميعاً يرتابون بي. فقد كنت أبعث إليهم دورياً بتقارير «الفرع الخاص» ولكنها لم تعد موضع اهتمامهم الآن، وباتوا يهتمون بتقارير مخابراتهم الخاصة، تقارير مخابرات «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ـ UMNO».

بعد التونكو سيكون هناك اضطرابات لأن المتطرفين والشوفنيين فعالون في جميع المعسكرات، وطالما أن التونكو حي، بشخصيته، فالناس سوف يصغون إليه، إنه فوق مجلس الوزراء، كما أن قواعد المسؤولية المشتركة للمجلس لا تطبق. وهذا أسهل للتونكو حيث نقوم بالأعمال القذرة، في حين إنه يستطيع أن يتبرأ منا إذا شاء.

وفيما كنت أهم بالخروج قال لي إسماعيل: «من الأفضل أن تبقي الأمور هادئة، وإلا ستكون هناك صدمة كبيرة للشعب، من فقدان للثقة، وهروب للمستثمرين، وسيكون سوكارنو هو المنتصر، وسيستمر في المجابهة. فمن الأفضل أن نبقي الأمور سراً وأن نتناقش، ومن الأفضل لي ألا أتكلم لأنهم لا يثقون بي. فهناك انقسام حاد الآن. «فالمنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ـ UMNO» لا تثق «باتحاد الملاويين الصينيين». MCA، والأخير ينافس «حزب العمل الشعبي» ـ PAP بخط أكثر شوفينية. وفي النهاية لا فرق بين الاثنين، إنهم المالاويون ضد الصينيين. وقبل الانتخابات اقترح تان سيوسين أن يندمج «التحالف» في حزب

واحد، أما الآن فهو يرفض ذلك لأنه يعرف أن الصينيين سيذهبون إلى حزبنا». كرر عدة مرات «تحدث مع توه وراجا إذ نستطيع أن نوافق على خطهم غير الاشتراكي من حيث المبدأ في الجيل القادم، أما الآن فإن الأجواء طائفية. دعنا نسير عبر خطوط متوازية لفترة 15 أو 20 عاماً، ثم ندمج المجتمعين. فسنغافورة و مالايا تاريخهما مختلفان وبنيتهما مختلفتان».

أكدت على أن العقبة الكبيرة أن تشين تشي وراجا، ونيك لين، وبانغ بون كانوا من الاتحاد و ماتزال عائلاتهم هناك. والروابط العاطفية جعلت من الصعب عليهم كثيراً أن ينسحبوا من مالايا. هز إسماعيل رأسه موافقاً.

بقدر ما حاولنا التكتم حول الترتيبات الدستورية الجديدة، والنزاعات المرة فيما بيننا، فإنها لم تخف عن البريطانيين، فقد كانوا قلقين من أي خطوة يمكن أن تصعب الاندماج الماليزي فيستغلها سوركانو.

وفي 28 تموز 1964 بعد أعمال الشغب الطائفية الأولى قابل كينغ سوي أنطوني هيد الذي علّق بقوله: إن زعماء المنظمة (UMNO) كانوا يعرفون أنه في مجابهة سياسية تقوم على الإيديولوجيا والعقيدة سوف يخسرون أمام حزبنا على المدى الطويل. كما أوضح كينغ سوي لهيد اقتراحات رزاق للتعاون والتعايش. رأى هيد أنها غير صالحة للتطبيق. وقال: إن استقالتي لن تفعل أي شيء صالح. وقال مطالباً بإبعاد مفوض سنغافورة بسبب اضطراب أحدثه المالاويون أنفسهم، الأمر الذي يمكن أن يلهب مشاعر الصينيين ويحدث ضرراً شديداً.

كان «هيد» يريد أن يعود التونكو سريعاً من الولايات المتحدة، وأن يعلن تشكيل حكومة من شأنها أن تعزز الوحدة الوطنية في وجه العدوان الإندونيسي. وقد أطلع لندن على وجهة نظره في صباح وساراواك باهتمام لأنهما لم تكونا ممثلتين بشكل كاف في مجلس الوزراء، فلا فائدة من دفاع بريطانيا عن الحدود إذا كانت المؤخرة مضطربة.

عاد التونكو إلى سنغافورة في 18 آب. وأخبرني أنه في طريق العودة من واشنطن توقف في لندن وقابل رئيس الوزراء البريطاني، الذي نصحه بأن أفضل طريقة لتضامن ماليزيا، بعد أعمال العنف الطائفية في سنغافورة هي تشكيل حكومة ائتلافية مع حزبنا (PAP). وقال التونكو: إن المنظمة الوطنية لاتحاد المالايو UMNO لن تقبل أبداً بهذا، لأننا بدورنا لن نقبل الشرط الأساسي الذي وضعه رزاق، وهو أن نبقى بعيداً عن عالم الملايو.

في كانون الأول (ديسمبر) 1964 بدا الطرفان يقتربان نحو اتفاق أكثر ليناً ضمن «الاتحاد». إذ طلب مني التونكو أن أضع الأفكار التي ناقشناها على ورقة من أجل أن نوضح ما نحن مستعدون لتسويته. وبالفعل أنجزت مذكرتي في 25 كانون الثاني 1965، مقترحاً العودة إلى وضع ما قبل الاندماج جميع السلطات الدستورية التي تحت سلطة حكومة سنغافورة تعود إليها، والحكومة المركزية تكون مسؤولة عن الدفاع، والسياسة الخارجية بالتشاور معنا، ولسوف نتقاسم المسؤولية في شؤون الأمن و«مجلس الأمن الداخلي». وإلى أن تتحقق وتعمم هذه الترتيبات الدستورية، سيحظر على سكان سنغافورة والنشاطات الحزبية السياسية خارجها، وهذا ينطبق أيضاً على الماليزيين على الأرض الأساسية.

كان راجا الشخص الأكثر معارضة لأي انسحاب مؤقت من ماليزيا. لأن ذلك يعني عزلتنا كما قال محتجاً، وأضاف بأنه سيتم القضاء علينا في النهاية على يد المتطرفين. ورأى أن نبقى في «الاتحاد» لتشجيع الشعب ضد المتطرفين وبذا نحظى على فرصة أفضل لمجابهتهم. والحق أن راجا لم يبتعد أبداً عن المجابهة، مهما كانت قذرة، عندما يقتنع أننا على صواب. وكان تشين تشي معه، ولكن غالبية المجلس كانت تساندني. أعطيت مذكرتي إلى التونكو بعد يومين وناقشها معي في قصر الرئاسة لمدة ثلاث ساعات في 31 كانون الثاني.

وقد تصادفت السنة الصينية الجديدة و«هاري رايا بواسا»، الاحتفالان الكبيران للصينيين والمالاويين في يوم واحد هو 31 كانون الثاني 1965 أكدت في رسالتي بقوة على الانسجام العرقي لمواجهة الدعاية الإندونيسية التي فاقمت

المشاعر المالاوية ـ الصينية. وقد جعل النداء الذي وجهه سوكارنو من أجل الوحدة الماليزية «المنظمة الوطنية لاتحاد الملايو ـ UMNO» تؤكد على مالاويتها للتغلب عليه. ولكن رسالتي أثارت رد فعل عنيف من جانب «التونكو» في اليوم التالي:

«هناك سياسيون يتهمون الحكومة باستخدام أساليب مسلحة قوية لفرض إرادتنا على الآخرين. إننا لسنا حكومة قوية فحسب، بل حكومة عادلة وجيدة أيضاً، ولكن القول إننا نستخدم أساليب عنيفة غير صحيح... هؤلاء السياسيون يتحدثون عن كفاح وتوتر، وعدو، و متاعب وحمامات دم قادمة، يتحدثون عن حرب... يزرعون الكآبة في عقول الناس أينما ذهبوا... في هذه الساعة من الاختبار والمحنة، فإن مثل هذا الحديث يعتبر حماقة وضرراً وخطراً وأقول لهم ياللعار».

أجبت بعد أربعة أيام في عشاء قدمته لجان خيرية أننا إذا جابهنا حقائق الحياة المنغصة، فلدينا احتمال كبير في أن نحلها بدلاً من أنها غير موجودة. والأشياء التي قيلت إذا ما سمح لها أن تستمر سوف تقود إلى تعاسة بالغة. كنت أشير إلى مقالات في صحيفة «أوتوسان ميلايو» التي استمرت في إثارة المشاعر المالاوية ضدي، وضد حزبنا وضد الصينيين. وقد نشرنا ترجمات بالإنكليزية والصينية والتاميل حول هذه الانتقادات اليومية اللاذعة، وأذعنا مقاطع في جميع اللغات عبر الإذاعة والتلفزة. كان التونكو يعلم أنني أجابه أساليبهم. أراد مني أن أبقى هادئاً وأن أناقش الأمور معه بشكل خاص. ولكنني أردت أولاً أن أكشف أمام كل فرد الحملة العرقية الشرسة التي كان يشنها كل من ألبار وصحيفة «أوتوسان».

وفيما كان التراشق العلني بالانتقادات والمجابهات مستمراً، التقيت مع كينغ سوي لإجراء مناقشة لاسيما مع التونكو ورزاق وإسماعيل. اقترحت فيها فكّ الاشتباكات لمدة بضع سنوات، مع تخفيف الروابط الاتحادية وضمان قوة أكبر لحكومة سنغافورة، وخاصة بالنسبة لشؤون الأمن الداخلي والشرطة. وأن البديل

للتعاون في حكومة وطنية هي دولة تعايش: سنغافورة لن تمثل في الحكومة (الوزارة)، ولكن كلتا الحكومتين، تعمل باستقلالية ضمن المجالات المتاحة للسلطة، لن يتم الاتفاق عليها، ولكن الشرط المسبق الأساسي لتعاونها أو تعايشها أن يبقى حزبنا PAP ـ لا في الملايو وحدها، بل في سنغافورة، خارج عالم المالايو ويتركه بالكامل إلى UMNO للتعامل مع المالاويين من خلال خير جوهري. فهذه المنظمة يجب أن تحتكر قيادة المالايو، حتى في سنغافورة.

وبعد عدة محاولات للوصول إلى ترتيبات وسط، استنتجت أن التونكو قد عزز موقفه. إنه مصمم الآن على إخراجنا من البرلمان الاتحادي، وهو لا يريدنا أن نشارك في مداولاته على الإطلاق. لقد أصبحنا شوكة في خاصرتهم، لاسيما في شؤون المال. وعلى سنغافورة أن تشرع بجمع ضرائبها الخاصة قبل الميزانية التالية، كما قال، على أن تدفع التزاماتها للدفاع الماليزي نظراً لأنها ستكون مزدهرة بفضل سوقهم المشتركة.

قال: «إذا كنتم خارج البرلمان نستطيع أن نكون أصدقاء، وذلك أفضل ـ أما إذا كنتم داخل البرلمان فلا بد أن تنتقدوا».

ولكن بدا مصمماً على الهيمنة على الدفاع والشؤون الخارجية. وقد كانت حجته بسيطة. «ماذا سيحدث إذا فتحت سنغافورة علاقات دبلوماسية مع الصين والدول الشيوعية الأخرى؟ ستجعل من الدفاع هراء».

منذ البداية كان يريد الاتحاد مع سنغافورة أن يكون على أساس المشاركة وليس الاندماج. وفكرته عن موقفنا هي وضع الدومينيون ـ مثل روسيا ـ كما قال إسماعيل.

قلت للتونكو: إذا كنا سندفع للدفاع فينبغي أن نمثل عندئذٍ في المجلس (البرلمان). إذ لن يكون ثمة دفع ضرائب بدون تمثيل، ولكنه كان متشدداً، وكما كتبت لزملائي في الوزارة: كانت «رغبته في إبعادنا عنيدة»، وعندما قلت: إنني

قد لا أكون قادراً على إقناعهم، بقبول أفكاري، انفجر التونكو بغضب قائلاً: «قل لهم إنني لن أقبل سنغافورة، هذا كل شيء، لا أريد سنغافورة في البرلمان، وهم لا يستطيعون شيئاً حيال ذلك».

سألت إسماعيل في اليوم التالي ما إذا كان التونكو قد فهم وجهة نظري، وهي أنه لا يستطيع أن يجعلنا خارج البرلمان ويتوقع منا أن نساهم في الدفاع والشؤون الخارجية. أجابني إسماعيل: «نعم إن التونكو تفهم تلك الفكرة ولا يمكن تحقيقها معاً».

ليس من دواعي الدهشة أننا لم نحقق أي تقدم مع «إعادة الترتيبات» ضمن «الاتحاد» والتي كنت قد اقترحتها بمذكرتي في 25 كانون الثاني (يناير). فبعد اجتماع مع «مجلس الدفاع الوطني» في 9 شباط قال رزاق لكينغ سوي: إنه من المستحيل بالنسبة للجانبين أن يفترقا عن المواقف السياسية التي تعززت بدرجة أو بأخرى على مر السنين، فما كان مناسباً لسنغافورة لم يكن مناسباً لماليزيا والعكس بالعكس.

فالاندماج كان خطأ، ولا بد من فترة انتقالية لتجنب التعارض، ومن الضروري الآن وضع صورة مختلفة من الكونفيدرالية.

وقال كينغ سوي: إن أية إعادة ترتيب دستورية ينبغي ألا تجعل سنغافورة تبدو وكأنها شبه مستعمرة، وإذا غادرت سنغافورة البرلمان الاتحادي فستقلص من مركزه وصلاحياته، وهذه ستكون مسألة خطيرة. وكرر فكرتي على أننا ينبغي أن نعمل باتجاه الوضع الذي كان موجوداً قبل ماليزيا، وهذه المرة وافق رزاق على أن شيئاً ما في هذا السبيل سيتم إجراؤه.

هذه المناقشات حول «إعادة الترتيبات» كانت مخيبة للآمال ومثيرة للمتاعب، لأن التونكو ورزاق كانا يسيران قدماً وتراجعاً، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء في اقتراحاتهم المتتالية. وبالنتيجة لم يقدما أي شيء لسبب بسيط مهم:

وهو أن البريطانين لا يريدون إضعاف ماليزيا أثناء المجابهة، وقد تدخل «هيد» بمهارة ليصد التونكو ورزاق وإسماعيل.

في 15 شباط لعبت أنا وتشين تشي وكيم سان «الغولف» مع التونكو. وذكرت عرضاً أن البريطانيين قد عرفوا ماذا يجري.

اكتشفت بعد زيارة اللورد مونتباتين لكوالا لامبور ثم سنغافورة أن التونكو قد غير أفكاره تجاه إعادة الترتيبات، متأثراً بأفكار مونتباتين وهيد. وقال: إن سنغافورة يجب أن تبقى ممثلة في البرلمان الاتحادي. والأموال الحكومية وسلطة الضرائب يجب أن تعودا إلى سنغافورة، وهو الموضوع الذي أثار الكثير من الفرقة بيننا. وكما اقترحت سابقاً فإن الدفاع والشؤون الخارجية ستبقى في أيدي الحكومة المركزية، في حين تبقى شؤون السيطرة على الشرطة وقضايا الأمن المحلي من شأن حكومة سنغافورة، ولكن الأمن القومي والمخابرات (ويقصد التونكو فرق م 15، وم 16) يجب أن تظل مركزية وإلا «ماذا يحدث إذا لم يكن حزب العمل الشعبي PAP قادراً على مواجهة حزب شديد التطرف مثل «الباريسان» يريد أن ينتزع السلطة ؟ ستصبح عندئذٍ كوبا.

طلب مني أن أعد مسودة رسالة يريد أن يبعث بها إلى هارولد ويلسون، لإبلاغه بهذه الترتيبات والتأكيد له أن ماليزيا لن تنفصم. وأرسلت له المسودة في اليوم التالي. كنا ثلاثتنا من سنغافورة مقتنعين أن البريطانيين قد دحضوا بنجاح أية فكرة تسمح للجزيرة أن «تحلق» على تعبير «التونكو». ولسوف يخبرني فيما بعد ويخبر كينغ سوي في قصر الإقامة أنه أراد الآن أن يدير الأمور ببطء. كان يخشى أي انكشاف للأمور أمام الجمهور، الأمر الذي سيكون في صالح سوكارنو.

جاء كلاود فينر، مفتش الشرطة العام من كوالا لامبور من أجل أن يراني. بدا مقتنعاً بإعطاء سنغافورة حق الإشراف على قواتها النظامية، وأبدى رضاها تجاه قدرتنا على حفظ الأمن المدني في حال أعمال العنف إذا ما استخدمنا وحداتنا وتستطيع أن تتخذ إجراء ضدهم، فمن المحتمل ألا تكونَ هناك اضطرابات تذكر.

بدا صادقاً، ولكنني كنت على خطأ في اعتقادي أن هذا كان موقفه النهائي. فبعد خمسة أيام أراني ورقة لإسماعيل، تفيد بما هو عكس ذلك تماماً: لا الشرطة ولا أمن الدولة يمكن أن يسلما الإشراف على سنغافورة. لقد غير موقفه، مثل التونكو، تماماً. أحضر السير روجر هوليس، رئيس الغرفة (M -15) الذي كان يزور كوالا لامبور لرؤية إسماعيل، وقد أقنعه هوليس أنه من المستحسن، من وجهة نظر مهنية، عدم توزيع الشرطة بين «سنغافورة و «الاتحاد». واقترح إسماعيل بدوره أن تستمر الحكومة الاتحادية في الإشراف على القانون والنظام في سنغافورة كما هو جارٍ الآن. سألت ما إذا كان التونكو قد غير رأيه أيضاً. فقال إسماعيل: لا لم يغير رأيه، ولكن من واجبه أن يقدم النصيحة المهنية التي تلقاها.

بعد ذلك بوقت قصير تناولت طعام الغداء مع «هيد» في مقر إقامته في كاركوزا، وتبادلنا مناقشات جدية لمدة 20 دقيقة بعده. كان قد قابل «التونكو» ورزاق وإسماعيل وتان، وقال: إن التونكو قد قرر التغييرات المعدلة الأخيرة، ولكن ثمة ثلاثة مفاتيح في هذا العمل. أولها أن تان كان معترضاً عليه بوصفه مسؤولاً عن المالية. والثاني أن إسماعيل اعترض على إعادة الإشراف على الشرطة والأمن إلينا. والثالث أن «منظمة» سنغافورة لم تكن تريد أن تهدأ فضلاً عن أن تتراجع. أخبرته أن فينر هو الذي وضع هذه المفاتيح تحت رعاية الشرطة. قال هيد: إنه لم يبحث الأمر مع فينر ولكن لعله يفعل ذلك فيما بعد.

اقترح أن يكون هناك توقف فيما المفاوضات دائرة، نوع من الهدنة. فذكرته بما حدث للهدنة الأخيرة. واقترحت أن يصدر التونكو وأنا بياناً يفيد بأننا وافقنا مبدئياً على أن يبتعد أحدنا عن الآخر في فترة المجابهة وأن تحل التفاصيل إدارياً كما ينبغي. وافق هيد ولكن لم يكن يعني ذلك. فقد أخبرني أن إعادة الترتيبات ستكون نصراً كبيراً ينبغي ألا نعطيه لسوكارنو لأن ذلك سيشجعه على المجابهة. ونصحني بالصبر والانتظار اللذين لن يطولا وذلك لأن اقتصاد إندونيسيا ينعاني من تضخم يمكن أن يدمره.

استمعت إليه بإصغاء وناقشت الأمر مع زملائي، واستنتجنا أن البريطانيين لا يريدون أن تتعرض ماليزيا لأي خطر من خلال تبني ترتيبات مخففة لا تطبق إلا على حكومة من حزبنا PAP في سنغافورة وستقود إلى مشكلات خطيرة إذا وصل «الباريسان» إلى الحكم. وفي اليوم التالي في 24 شباط طلبت منه أن يقابلني في «دار سنغافورة» في كوالا لامبور. قلت إنني لا أستطيع أن أحمل التونكو على إصدار بيان لأن «هيد» قد أخافه من أن يقول أو يفعل أي شيء. كان الموقف معرضاً للتدهور بسبب تنابذ الطرفين ولسوف نجد أنفسنا في حالة شغب أخرى من صنع أيدينا. وقال هيد: إنه سيجعل التونكو يعلن أنه يفكر بالقيام بتعديلات بسيطة في ماليزيا لجعل العمل أيسر، وليس بتغيرات أساسية أو جوهرية.

قدمت تقويماً مكتوباً لمجلس الوزراء: أبيّنُ فيه أن ليس مونتباتين وهيد فقط يضغطان على الزعماء الماليزيين ولكن المسؤولين البريطانيين يثقون بوزراء «التحالف» مثل فينر في الشرطة، وغولد في المالية الفدرالية، وأنهم يبذلون كل ما في وسعهم كي يجعلوا التونكو يحول دون إعادة الترتيبات. فالبريطانيون لا يريدون أي تغيير طالما أن المجابهة ما تزال قائمة، وإذا كان لا بد من إجراء بعض الترتيبات، فليكن ذلك في أدنى حد، ولا بد أن يبقى الفرع الخاص والشرطة تحت سيطرة المركز.

كان استنتاجي: «من خبرتي في مفاوضات الاندماج أن هذه أساليب بريطانية معهودة .. ولا يمكن القول: إنه لن يكون هناك تغييرات. و لا أعرف ما إذا كان هيد ينوي أن يضعفنا». لم أستبعد إمكانية إذا فشلنا في الإصغاء للتفاوض إلى نصيحة هيد فقد يشير على التونكو بأن البريطانيين سوف يكونوا مستعدين للتغاضي عن إبعاد تحدينا في الاتحاد.

كان رصيدنا في المساومة هو قوتنا السياسية المستمدة من فروع حزبنا في الملايو، وحضورنا في مجلس البرلمان، والذي كان يمكننا من استجماع قوى غير المالاويين، والمالاويين التقدميين في جميع أنحاء ماليزيا، ولكن من أجل ذلك كان على سيو تان أن يتجاهل انتقاداتنا للميزانية وأن يعرض لائحة الضريبة الإجمالية أمام البرلمان.

المناقشات التي كانت تجري خلف المسرح منعت الموقف من الغليان. فكلا الطرفين أراد أن يتجنب أي تصادم . وكلاهما كان يريد ترتيبات مخففة لإنهاء الخلاف الدائم الذي من شأنه أن يضعف موقف ماليزيا الدولي والداخلي على المدى البعيد. ولكن البريطانيين كانوا يعملون بهمة على إبقاء ماليزيا سليمة، وأيد الأوستراليون والنيوزيلانديون بريطانيا، وحثني كل من توم كريتشيلي، ونائبه في سنغافورة، بيل برتيشت، على أن أترك الأمور بدون تغيير دستوري وإداري، والخروج من السياسة المالاوية وإغلاق فروع حزبنا في شبه الجزيرة في مقابل أن يكون لنا وزيران في الحكومة الاتحادية. فقلت لكريتشيلي: إننا لا نستطيع أن نسحب حزبنا (PAP) من الملايو في الوقت الذي تعمل فيه المنظمة الوطنية UMNO في سنغافورة، وإن المالاويين المتطرفين يمكن أن يستخدموا أداة لابتزازنا بالتهديد بأعمال شغب طائفية، إن منظمة UMNO لا تستطيع أن تأخذ الكعكة وتأكلها.

في تلك الأجواء المكفهرة بالتوتر المتزايد مابين سنغافورة والزعماء الماليزيين وكان الحوار الصريح ما يزال ممكناً بيني وبين كينغ سوي من جانب، وبين رزاق والتونكو من جانب آخر، وكان تبادل الأحاديث الصريحة فيما بيننا من شأنه أن يحول دون كارثة. ولكن لما كانت المشاحنة مابين كوالا لامبور وسنغافورة تسبب قلقاً لأستراليا ونيوزيلاندة، فإن مبعوثيهما السابقين قدما لي دعوتين لزيارة بلديهما في آذار ونيسان عام 1965. ولابتالي سأكون قادراً على شرح، لماذا سنغافورة، على الرغم من الخلافات الداخلية، كانت تقف بقوة وراء كوالا لامبور ضد المجابهة؟، فهذا تحد يساعد على التأكيد لشعوبها أن حكوماتهم ينبغي أن تساند ماليزيا ضد الإندونيسيين.

وهكذا وجدت نفسي في 5 آذار أحط في أوكلاند.